مذكرات
سفير أميركا في الآستانة

المستر هنري مورغنتو

(تعريب)

فؤاد صروف

عني بنشره
يوسف توما البستاني
صاحب مكتبة العرب بالفجالة

طبع بمطبعة المقطم بمصر سنة ١٩٢٣

تنسيق ورفع محمود العثماني

مقدمة

ان تاريخ الشرق الادنى الحديث حافل بالحوادث الجليلة مفعم بالانقلابات الخطيرة التى لا يقدر المؤرخ المنصف ان يمر بها دون ان يفسح لها مكاناً رحباً فيما يدونه عن احوال الامم في القرن العشرين

وأهم ما يلاحظه الباحث في احوال العمران البشري تنبّه روحي عام في كل ارجاء الشرق كان الباعث اليه اساليب الغرب السياسية العقيمة واعتماد دوله على الوعود تارة والوعيد اخرى ، الامر الذي الفه الشرقيون وسئموه . وزد على ذلك فان الشرارة التي اصابت الشرق من شعلة التقدم العلمي الحديث في اوروبا وامريكا حركت مافي نفوسهم من القوى الكامنة والعزائم المدفونة

واجلى المظاهر التي ظهر فيها هذا التنبه الشامل هو قيام الحكومة الوطنية التركية على انقاض تركيا القديمة (١) التي سار بها الى الهاوية اولئك الزعماء الذين وضعوا المصلحة الشخصية فوق مصلحة المجموع وجعلوا الاستئثار بالقوة والتفرد بالحكم غاية كل عمل يعملونه ومرمى كل سعي يبذلونه

اما تركيا الجديدة (٢) فقد اظهرت انها كفوء لاكبر الدول وأقواها ان في حومة الوغى او في معامع السياسة الدولية وها هي وقفات الجيش الكمالي بقيادة الغازي مصطفى كمال باشا في سقاريا واسكي شهر وازمير ومواقف عصمت باشا في مودانيه ولوزان شاهد عدل على صحة ما اقول

اما الكتاب التي سنضعه الآن بين ايدي القراء فهو خلاصة ما كتبه السفير الامريكي في الاستانة من سنة ١٩١٣ الى ١٩١٦ عن اختباراته السياسية فيها

---

(١) والنهضة المصرية الحديثة لاتقل عن تلك اهمية وخطورة

(٢) تركيا اليوم غير تركيا بالامس — من خطبة للغازي مصطفى كمال باشا

واصفاً اساليب السياسة القديمة التي اتبعها زعماء تركيا القديمة في الحكم وادارة شؤون الامبراطورية الواسعة مستشهداً على ذلك بحوادث ونوادر وقعت له مع اولي الشأن متناولاً بقلمه القارس كل ما رآه بعينه النقادة من الخلل في سير الامور غير محاب ولا متحزب فانه قال الصحيح حتى على نفسه

وقد الحقنا بالكتاب جزءاً من مذكرات طلعت باشا الذي ترجمناه في السنة الفائتة ونشره الهلال الاغر ومن مقابلة ما فيهِ باقوال السفير الامريكي يقدر القارئ ان يحكم على مبلغ صحة المؤلف في سرد الحوادث وتعليلها مع ما في مذكرات طلعت باشا من الميل الظاهر الى تبرير اعماله واعمال زملائه

ومنذ ثلاث سنوات قبل الشروع في ترجمة هذا الكتاب كتبنا الى الشركة الامريكية التي نشرته اولاً نستأذنها في نقله الى العربية فاذنت لنا بذلك لحقوق اعادة طبعهِ محفوظة للمعرب

القاهرة ١٩ فبراير ١٩٢٣

الفصل الاول

السفير الالماني

أرى الآن وقد بدأت بتدوين مذكرات حياتي في عاصمة آل عثمان ان مآرب المانيا لتأسيس امبراطورية كبرى تمتد من البحر الشمالي الى خليج العجم قد تمت او كادت (١) فقد اصبحت الآن ولها اليد الطولى في ادارة شؤون تركيا وذلت روسيا بعد ان كسرت جيوشها الجرارة في بروسيا الشرقية وبولونيا وطردتها بمساعدة النمسا من جبال الكربات الى بسارابيا واجتاحت الجيوش الالمانية سربيا ورومانيا فذللت بذلك آخر الصعاب في سبيل نفوذها الكلي في الشرق الادنى

هل كان هذا النجاح الوقتي ليحقق احلام المانيا في انشاء تلك الامبراطورية الكبرى ؟ حينما اضع امامي خريطة المانيا واراجع انتصاراتها الباهرة في الحرب والسياسة تأخذ اختباراتي السياسية في عاصمة آل عثمان طوراً جديداً . لم افهم قبل الآن ان ما حدث في الاستانة اثناء وجودي فيها لم يكن الا جزءاً صغيراً من سلسلة اعمال محكمة الحلقات وأرى الاشخاص الذين لهم علاقة بتلك الحوادث ممثلي رواية محكمة الوضع والتأليف يديرها رجال قديرون . ارى بكل وضوح ان المانيا اعدت معداتها لانشاء تلك الامبراطورية . والبلاد التي ارسلت اليها سفيراً كانت حجر الزاوية في ذلك البناء الفخم الذي كان ينوي القيصر ان يشيده ..ولو لم يتسنَّ لالمانيا ان تملك ادارة الشؤون في الاستانة في اواخر سنة ١٩١٤ لا نقضى شأن هذه الحرب الطاحنة بعد معركة المارن الاولى ببضعة اشهر. ولاتمام هذا العمل العظيم وتحقيق هـذا الحلم الجميل انتخب القيصر احد رجاله القديرين الذين عرفهم بالاختبار الشخصي وأرسله سفيراً الى تركيا وذلك الرجل هو البارون فون ونغنهايم

البارون فون ونغنهايم رجل طويل القامة قوي البنيــة ومع انه كان قد ناهز الرابعة والخمسين يوم التقيت به للمرة الاولى وجدته وماء الشباب يتدفق من

---

(١) كتب هذا الكلام قبل عقد الهدنة سنة ١٩١٨

وجهه ،حاد النظرات قوي التأثير في كل معارفه واصدقائه. كان قد خدم الحكومة الالمانية في سفاراتها في بتروغراد وكوبنهاغن ومدريد وأثينا والمكسيك فاكتسب بذلك اختبارات ثمينة وحصل مركزاً رفيعاً بين ساستها فلا بدع ان انتخبه الامبراطور منفذاً لمآربه في تركيا .

جمع السفير ونغنهايم بين مبادىء الالمان الحربية وحنكة الانجليز السياسية وحدة الذهن وقوة الارادة وحسن الادارة فسهل عليه ان يقنع زعماء الحكومة التركية بما فيه خير المانيا

جاء الاستانة وله غاية واحدة يسعى وراءها وهي ان يؤكد مساعدة تركيا لالمانيا في الحرب التي كان ينوي الامبراطور تسعير نارها. وذلك لان مساعدة تركيا اصبحت ضرورية لانتصار المانيا النهائي بعد انعقدت المحالفة الروسية الافرنسية وفشلت سياسة المانيا في ابقاء فرنسا وروسيا منفصلتين. وعلم انه اذا فاز في عمله هذا يقطف ثمرة اتعابه ويتقلد اسمى منصب في الامبراطورية الالمانية فصبّ كل مالديه من القوة والحنكة والدربة للوصول الى غايته المنشودة

ويحسن بنا في هذا الصددان نذكر شيئاً عن التغييرات التي طرأت على الحكومة التركية بعد الحرب البلقانية الاولى

مضى على المملكة العثمانية عدد من الاعوام وهي تنتقل من دور الى دور ومن حالة الى اخرى طبقاً لما يقتضيه ناموس النشوء والتغير المستمر. ولم تكد تأفل شمس تموز من سنة ١٩٠٨ حتى اسقط عبد الحميد عن العرش ، ذلك السلطان المعروف « بالسلطان الدموي » لما هرقهُ من الدماء البريئة واستلم زمام الامور نخبة من رجال تركيا الراقون فرجع الابتسام الى الثغور والفرح الى القلوب كأن لم يكن عبد الحميد ولا حكومته التي قضت على تركيا بالتقهقر والخذلان . وتفاءل جميع محبي تركيا بفاتحة عصر مجيد تنهض فيه الامة من كبوتها وتصلح ما افسده فيها رجال الحكومة السابقة فتبني اساساً وطيداً لحكومة قوية راقية

هذه خلاصة حركة تركيا الفتاة وما بعثته في الصدور من الاماني والآمال لكن اين تلك الاحلام الجميلة والاماني اللذيذة والآمال الواسعة ؟ ذهبت كلها ادراج الرياح

....

وصلت الى تركيا سنة ١٩١٣ فوجدت ان الحالة كانت قد تغيرت تماماً عما كانت عليه قبلاً

كانت النمسا قد ضمت البوسنة والهرسك الى امبراطوريتها وايطاليا انتزعت طرابلس الغرب بعد حرب وقتال وحكومة تركيا كانت قد خرجت من الحرب البلقانية بالفشل والخذلان بعد ان خسرت كل اراضيها الاوروبية الا العاصمة وما يجاورها . وهكذا فشلت الحركة التي كانت ترمي الى تأسيس حكومة دستورية فشلاً تاماً وأسباب ذلك لاتخفى على انسان . على انه لايحسن بنا في هذا الموقف ان ننتقد اعمال زعماء تركيا الفتاة اذ لاشك انهم كانوا مخلصين . وهاك ماقاله انور في احدى خطبه في سالونيك بعد اعلان الدستور — اليوم تتقوض دعائم الاستبداد . فنحن اخوة وتحت هذا الجلد الازرق يفتخر كل منا بأنه عثماني . هذه عبارة تظهر لنا احلام رجال الحركة الجديدة وآمالهم ولكنها احلام لم تتحقق وآمال لم تخرج الى حيز الحقيقة. لان الشعوب التي قاست انواع الآلام ورسفت في قيود الذل والاستعباد قروناً متوالية لم تتمكن من ان تنبذ احقادها وضغائنها بين ليلة وضحاها اثر عبارة كهذه . وهكذا بقيت الاحقاد والضغائن تحت الرماد تنتظر سنوح الفرصة لتتقد وتلتهب وهذه الفرصة سنحت حينما خرجت الحكومة من الحرب البلقانية بالفشل والذل والاخفاق .

في اوائل سنة ١٩١٣ كان كامل باشا متقلداً منصب الصدارة العظمى وناظم باشا ناظراً للحربية وهذان الرجلان كانا زعيمي حزب معروف بحزب الاحرار وسياسته كانت على طرفي نقيض مع سياسة تركيا الفتاة . دخل رجال هذه الحكومة وطيس الحرب البلقانية الاولى وبعد ان خرجوا منها خاسرين واضطروا باشارة من الدول الاوروبية ان يسلموا ادرنه للحكومة البلغارية . عند ذلك هب رجال تركيا الفتاة وفي مقدمتهم طلعت وأنور يتبعهما ما ينيف على مائتي رجل وطلبوا الباب العالي . ولما سمع ناظم من الداخل اللغط والضوضاء خرج الى الباب وقابلهم قائلاً — ماهو سبب هذه الضوضاء ؟ الا تعلمون اننا ندرس امور المملكة المهمة ؟

لم يكد ينهي كلمته الاخيرة حتى اصابته رصاصة في رأسه اردته قتيلاً مضرجاً بدمه عند ذلك دخل هؤلاء الى القصر حيث كان اعضاء الوزارة مجتمعين فاضطر كامل باشا ان يستقيل . والذي ساعدهم على اتمام ما يريدون هو ضعف السلطان

الذي لو اراد لتمكن من جمع كلمة الاسلام ضدهم لانه لم يكن سلطان تركيا فقط بل خليفة المسلمين ايضاً

صعد رجال تركيا الفتاة سلم السلطة واعتلوا منصة القضاء بواسطة القتل والترهيب .ولم يتمكنوا من ادارة الاحكام حسبما يشاؤون الا بعد ابادة كل معارض وابعاد كل منازع فعينوا جمال(١) حاكماً عسكرياً للعاصمة رغماً عن مشاغله العديدة وناطوا به امر تعقب المتآمرين والتخلص منهم فجعل يسجن هذا وينفي ذاك ويأمر باعدام ذلك حتى استتب لهم الامر . وقيل انه في يوم واحد حكم على ثلاثة عشر من نخبة رجال تركيا بالاعدام بينهم امير من الاسرة المالكة . وحينما أتى الامر للسلطان لكي يوقع عليه ووجد ان احد افراد الاسرة المالكة بين المحكوم عليهم طلب وتوسل الى طلعت لكي يعفو عنه ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار لان طلعت وجد فرصة مناسبة ليقرر من هو حاكم تركيا الحقيقي — هل هو السلطان ام زعماء جمعية الاتحاد والترقي ؟ وفعلاً رفض طلب السلطان وتوسلاته وفي صباح اليوم الثاني شنق ذلك الامير المنكود الحظ على مرأى من الجمهور فصار اسم طلعت وزملائه كافياً ليلقي الرعب في القلوب وهكذا انقضى عهد جمعية تركيا الفتاة كجمعية ترى في خير تركيا واصلاحها غايات الغايات . عرف زعماء تلك الجمعية — طلعت وأنور وجمال — ان الغرض الذى جاهروا به لم يعد في امكانهم الحصول عليه فبذلوا كل مرتخص وغال للتفرد بالسلطة والاستئثار بالحكم فبرروا كل واسطة مهما كانت قبيحة في سبيل الوصول لتلك الغاية وبدلاً من ان اري تركيا مؤلفة من عشرين مليون نسمة يعيشون عيشة سعيدة مظللين بلواء العدل والحرية والاخاء كما كنت انتظر وجدت انها لم تزل عناصر مختلفة تفصل بينها حواجز المصلحة والمذهب والاعتقاد . رأيت الفقر ضارباً اطنابه والمسكنة رافعة قبابها وفي كرسي الحكم طلعت وأنور وجمال وقد وضعوا اتباعهم في كل المناصب المهمة فتمكنوا بذلك من ان يديروا دفة الملك حسبما يشاءون تنفيذاً لمصالحهم الذاتية . وهكذا كانت حالة تركيا يوم وصلت اليها — تركيا الفتاة الكل في الكل

(١) هو جمال باشا الذي صار اثناء الحرب حاكم سوريا

الفصل الثاني

الحكومة التركية وتنفيذ مآرب المانيا

طلعت زعيم تركيا الفتاة الاكبر وركنها الاقوى كان رجلاً غريب الاطوار والصفات . اني لا اعلم حقيقة اصله ومولده ولكن هنالك رأيان متباينان . الاول يذهب الى ان اجداده بلغاريو الاصل اعتنقوا الدين الاسلامي والآخر يقول بانه من غجر البلغار . فاذا صح احد هذين المذهبين — وانا اعتقد بصحة الاول — فحاكم تركيا الحقيقي اذاً لم يكن تركياً واني اعلم حق العلم ان مسألة الدين الاسلامي لم تكن تؤثر مطلقاً في اعماله وقراراته السياسية

بدأ طلعت حياته كناقل بريد . ثم انتقل الى مركز التلغراف في ادرنة وقد كان يفتخر دائماً بانه لم ينل منصبه العظيم الا بجده واجتهاده وتيقظه. زرته مرة في بيته فوجدت مسكنه بسيطاً للغاية مع انه كان اقوى رجل في تركيا . لم اجد فيه طنافس ثمينة ولا رياشاً نفيسة ولا اثاثاً غالي الثمن وقد قال لي مرة انه بعد ان وفى ديونه من راتبه الشهري لم يبق معه الا عشرون ليرة لينفقها على عائلته .

لم يصب طلعت من التعليم في صباه نصيباً وافراً لكنه حصل بجده واجتهاده كل مايحتاجه في اعماله . تعلم من الافرنسية ما يساعده على مخاطبة السفراء بدون ترجمان ومع انهُ لم ينشأ على استعمال الشوكة والسكين على مائدة الطعام كان له المام واسع بعادات الاوربيين الاجتماعية .فكان يمثل تركيا في كل الحفلات الرسمية. كان طلعت من اولئك الرجال الاقوياء البنية الذين يتمكنون من التأثير في رفاقهم بمظاهر قوتهم الجسدية. واعجب ما كنت اراه في طلعت هو قوة ذراعيه اللتين كان يركزها على المائدة امامه في كل مقابلاته الرسمية. حدث اني اتيته في احد الايام فوجدته جالساً امام مكتبهِ مركزاً قبضتيه عليها وعلى وجهه دلائل الحنق وامائر الغضب . فبسطت لديهِ عدة مطالب ولكنه رفضها كلها قائلا لا. لا. لا .

عند ذلك تركت مركزي واتيت الى قربه وقلت

يادولة الوزير. اني اعتقد ان وجود قبضتيك على هذه المائدة سبب كل خلاف بيننا . الا تؤثر رفعهما من هنا ؟

ما كدت انهي عبارتي حتى ضحك ضحكة رن صداها في اطراف الغرفة ورفع يديهِ معجباً بتلك النكتة ولم يلبث ان منحني جميع مطالبي

ذهبت لازوره مرة اخرى فوجدت مكتبه ملآن ببعض امراء العرب واتباعهم وقد جلس طلعت امام مكتبهِ برزانة ووقار . بسطت اليه بعض المطالب ولكنه رفضها كلها قائلا

— لا ! اني لن افعل ذلك . او لا يمكننا ان نسمح بذلك مطلقاً !

علمت انهُ بجوابه كان يريد ان يظهر امام امراء العرب بمظاهر القوة والسلطة برفضه مطالب سفير دولة عظيمة فاقتربت منه وقلت .

انى اعلم الدافع لرفضك الصريح ولكن اعمالي مهمة لا يستخف بها فاذا اردت ان تظهر عظمتك فادع سفير النمسا الى هنا

ضحك طلعت وقال ارجع الي بعد ساعة . رجعت في الوقت المعين وقد انصرف الامراء فاتفقنا بسهولة

قال لي مرة وكنا نبحث في مركز السلطة الفعلية في تركيا لابد لتركيا من حاكم قدير يدير شؤونها .فلم لا نحكمها نحن– اي أعضاء جمعية الاتحاد والترقي – لا تسل كم اسفت لفشل الاتراك في حكومتهم الدستورية وقد بذلت وسعي في سبيل الحصول على حكومة دستوريه راقية ولكن ذهبت اعمالي ادراج الرياح لان العثمانيين ليسوا بمستعدين لها من حيث الاخلاق والتربية

لم اجد بين كل ساسة تركيا رجل اقدر من طلعت وابعد منهُ نظراً في تقدير عواقب الامور وفهم العوامل التي تدفع الناس لاعمالهم المختلفة . وقد اظهر مقدرته الفائقة بعد قتل ناظم وذلك بانه لم يتقلد اعظم منصب سياسي في المملكة العثمانية دفعة واحدة مع ان ذلك كان في امكانهِ . لكنه اخذ يتدرج قليلاً قليلاً بالاستئثار بالسلطة والتفرد بالحكم لكي لا ينفر منه باقي اعضاء الجمعية فيعملون على اسقاطه وقتله. وقال لي غير مرة واحدة اني لا انتظر ان اموت على فراشي.

ولما تقلد منصب وزارة الداخلية اصبحت حكومة الولايات العديدة وقوة البوليس في العاصمة تحت سلطته الشخصية فاستخدمها لتنفيذ مآربه ومآرب الجمعية التي كان هو زعيمها الاكبر . وكان يدعي دائماً ان غاية الجمعية الاولى هي توحيد الاجناس فجعل بين اعضاء الوزارة شركسياً ومسيحياً ومصرياً.

وهذا الاخير قلده افخم منصب في تركيا — منصب الصـدارة العظمى — بعد ان تفاهما ان سلطة الصدر الاعظم تكون اسمية لا فعلية

سعيد حليم باشا — الصدر الاعظم كان رجلاً راقياً يتكلم الانكليزية والافرنسية كار بابهما . لكنهُ كان فخوراً يهوى العظمة وان كانت فارغة . وجل ما كان يطمح اليهِ هو ان يصير خديوي مصر (كذا) .وذلك ما جعله آلةً في ايدي الاتحاديين املا من انهم سيساعدونهُ على احراز ذلك المنصب الرفيع

اما المانيا فكانت قد جعلت درس احوال ممالك العالم قاطبةً قسما مهماً من استعدادها الحربي القليل النظير ولما كان مندبو المانيا يرون فرصة سانحة للعمل كانوا يقدمون بدون توانٍ أو تأخر . ولاشك أن سفير المانيا واتباعه فهموا تماماً حالة تركيا السياسية في ذلك الوقت ووجدوا فرصة لاتمام مآربهم وهو التثبث من مساعدة تركيا لالمانيا عند ماتسعر نار الحرب الكبري

وفضلا عن ذلك كانت تركيا في حالة تدفعها لطلب مساعدة المانيا دون غيرها من الدول لان الاتحاديين لم يكونوا قادرين على القيام بمهام الحكومة دون مساعدة اجنبية . فتشوا التاريخ فوجدوا ان انكلترا صديقتهم القديمة اصبحت عدوهم الالد — كذا — وروسيا عدوتهم التاريخية قد ساعدت بلغاريا ورومانيا رسمياً على نيل استقلالها . وكانت لم تزل تعمل على ايصال اذيتها اليهم وترنو الى عاصمتهم بعين الطمع .وايطاليا كانت قد اشهرت عليهم حرباً عواناً وضمت طرابلس الغرب الى مملكتها . وفرنسا كانت حليفة عدوتهم روسيا كما انها كانت باذلة وسعها لتقوية نفوذها في سوريا واللفانت

نظر ساسة الاتراك الى حواليهم فلم يجدوا دولة يقدرون ان يطلبوا مساعدتها الا المانيا التي كانت فاتحة لهم ذراعيها فاستقبلتهم بالحفاوة والاكرام وامدتهم بالمال والرجال وأصبحت في عرف اكثر الاتراك صديقهم الصدوق ومساعدهم المخلص ولم يتم ذلك الفوز العظيم الا بمساعي ونفهايم وأخوانه

في اوائل سنة ١٩١٤ تقلد انور منصب وزارة الحربية ولم يكن عندئذ قد ناهز الثانية والثلاثين من العمر وكباقي ساسة الاتراك في ذلك الاوان كان من اصل وضيع وانما رُقّي الى ذلك المنصب الرفيع لأنهُ نال من اكثرية الشعب لقب بطل الدستور

نال انور شهرة حربية واسعة في تركيا مع انهُ لم يكن قد قام بعمل حربي كبيراً اواحرز نصراً عسكرياً عظيماً نعم كان احد زعماء الدستور ولكن لم يحدث في تلك الثورة السلمية ما يستدعي براعة حربية فائقة . وتولى قيادة الحملة في طرابلس الغرب ولكنه لم يبد هنالك مقدرة عجيبة تجعله في مصاف عظماء القواد

كان اصدقاؤه يدعونه نابليونلك اي نابليون الصغير . زرته مرة في بيته فوجدته جالساً بين جدارين علق على احدهما صورة مكبرة لنابليون وعلى الاخرى صورة فردريك الكبير كانه يقول ان حياة هذين الرجلين كانت مثالا له ينسج على منواله وقد كان يعتقد ان المستقبل يضمرُ له مجداً وفخراً كمجدهما وفخرهما

ولكن كل من يدرس اخلاق انور ويختبره يتأكد ان انور لم يشابه نابليون في بعد نظره على الاقل ويظهر لنا ذلك بوضوح اذا تتبعنا الوسائل التي استعملها لتحقيق احلامه وبلوغ امانيه

اظهر انور ميلا شديداً الى المانيا منذ حداثته . وبعد سقوط عبد الحميد واعلان الدستور ارسلته الحكومة التركية الى برلين عضواً في احدى البعثات الحربية . هنالك تعرف الى الامبرطور فوجد هذا انهُ يمكن له ان يستعمله آلة لتنفيذ مآربه فبدا منذ ذلك الحين يعدّهُ لذلك العمل . ثم قضى انور مدة في برلين كملحق عسكري للسفارة العثمانية وحينما رجع الى الاستانه كان قد تشرب روح المانيا العسكرية واصبحت عاداته المانية اكثر منها تركية . ولما ارتقى منصب وزارة الحربية اخذ ونفهايم يطريهِ ويمتدح مقدرته الشخصية ووعدهُ بمساعدة المانيا له بكل اعماله حتى امتلك فؤادهُ وارادتهُ معاً

لم يكد انور يستلم مقاليد منصبه حتى اعاد تنظيم الجيش فاقال الضباط الذين كانوا من حزب ناظم باشا اذ عرفوا بالميل الى الحكومة البائدة ووضع في اماكنهم ضباطاً يريدون جمعية الاتحاد والترقي وارسل منشورا الى كل الثوار والضباط يأمرهم فيهِ ان ينظروا اليهِ فقط كمصدر سلطتهم وقوتهم. فذعر طلعت لذلك العمل المفاجيء ولكن انور اظهر عزمه الثابت وقراره غير القابل التعديل مع انهُ كان بين الضباط المخلوعين شكري باشا بطل ادرنه وامثاله. ثم طلب رسمياً من الحكومة الالمانية ان ترسل بعثة عسكرية لتبحث في امر تنظيم الجيش التركي على النسق المتبع في المانيا ومع ان طلعت لم يكن موافقاً تمام الموافقة على منح

المانيا ذلك النفوذ القوي رأى نفسه مضطراً لطلب مساعدتها لانها كانت اقل خطراً من غيرها حينذاك — في نظرهم وقد نقل اليَّ احد معتمدي الدول في الاستانة من حديث له مع طلعت بهذا الصدد ما يأتي

سال ذلك المعتمد طلعت قائلا

— لماذا تسلمون ادارة شؤونكم الى الالمان — ملمحاً الى البعثة العسكرية الالمانيه الا ترون ان المانيا تجرب ان تحول تركيا الى مستعمرة المانية لكي تحقق امانيها ؟ فاجاب طلعت قائلاً

اننا نعرف ذلك تماما ولكننا ادركنا ايضاً انه لا يقوم لهذه البلاد قائمة ما ان لم نستمد المساعدة من أحدى الدول الاوربية ولذلك ترانا الآن نستعمل المانيا وقوة رجالها ومقدرتهم الفنية لتحقيق امانينا ومتى جاء ذلك اليوم السعيد نقول لالمانيا ولرجالها « رافقتكم السلامة »

وحدث انهُ بعد وصولي الى الاستانة القيت خطاباً مسهبا في غرفة التجارة اظهرت فيهِ سوء الحالة الاقتصادية في تركيا وما يتصل اليهِ اذا لم يتدارك ولاة الامر ذلك الفساد واشرت عليهم ان لا يستولى عليهم اليأس والقنوط اذا لم يبلغوا المراد في مدة قصيرة

واتفق ان انور وطلعت كانا حاضرين فتوسما خيراً في خطابي وظنا انهما قد يتمكنان من الحصول على مساعدة امريكا المالية فيتخلصون بذلك من دول اوربا وأستبداد متموليها . كانت فرنسا قد امدت تركيا بالمال حتى ذلك الوقت وفي صيف ١٩١٤ كان ماليون فرنسا يتفاوضون بشأن عقد قرض آخر ولم يتمكنوا حتى ذلك الوقت من الاتفاق . ولم يرساسة تركيا من الحكمة ان يعقدوا قرضاً المانياً كبيراً لسقوط سعر المارك الالماني . لذلك اتاني في كانون الاول ١٩١٣ سليمان البستاني — ناظر التجارة والزراعة وسألني ان اخابر مصارف امريكا بشان عقد قرض اميركي . وسألني هل كان يوجد في الولايات المتحده رجال اخصاء يأخذون على عاتقهم امر تنظيم مالية الدولة العثمانية ـ وكان في طلبهِ رنة يأس وقنوط

اما انا ولم يكن قد مضى علي اكثر من ستة اسابيع في تركيا رأيت من الحكمة والصواب ان لا ابدي رأياً في الامر قبل ان اتمكن من درس حالة البلاد الاقتصادية درساً دقيقاً

مضى اسبوع ولم يحدث مايستحق الذكر بذلك الشأن واذا في اواخر الاسبوع قد اتاني طلعت وعرض عليّ ان اسافر على نفقة الحكومة الى انحاء المملكة العثمانية لكي ادرس الحالة الاقتصادية والاجتماعية وطلب الي ان ابذل جهدي لعقد قرض صغير حينذاك لا يزيد على خمسة ملايين جنيه حتى انتهي من رحلتي

فاجبته باني سابذل منتهي جهدي لاجمع لهم ذلك المبلغ وساعمل باقتراحه الاول اي التجوال في انحاء المملكة لدرس الحالة الاقتصادية

طلبت الرخصة من نظارة الخارجية في واشنطون فحصلت عليها وفي نفس الوقت كتبت الى احد اقربائي ليبحث عما يكون موقف مصارف الولايات المتحدة تجاه قرض اميركي ـ تركي فورد الجواب ان اصحاب المصارف لا يعلقون اهمية على ذلك ولكن هنالك انسان يدعي المستر بلنغز قد اظهر ارتياحاً لذلك المشروع وعما قليل سيبحر على يخته الخاص الى الاستانة ليقابل اولي الامر ويبحث معهم في ذلك الشأن

لم تكد تنتشر اخبار مجيء بيلنغز حتى اخذ اصحاب السلطة في الاستانة يكبرون ذلك الامر ويعظمونه ويعلقون عليه من الحواشي والهواشي ما شاءه الخيال والتصور لان مجيء احد كبار اغنياء اميركا على يخته الخاص الى الاستانة للاهتمام باصلاح مالية تركيا بدالهم امراً عظيماً للغاية

وصل مستر بلنغز واجتمع باكثر اعضاء الوزارة ولعبت زيارته دوراً مهماً ولكن القرض لم يعقد لان اصحاب المصارف في فرنسا اسرعوا للاتفاق مع الحكومة العثمانية حينما علموا بمجيئه

ولكن زيارة مستر بلنغز وتعرفه الي طلعت واعوانه خففت كثيراً من متاعبي اثناء وجودي بالاستانة في تسوية بعض المسائل وخلصت عدداً كبيراً من الاميركيين وغيرهم من الجوع والبرد لان طلعت واصحابه باتوا ينظرون الي كرجل محب لمصلحة تركيا دائب على مساعدتها واصلاحها

الفصل الثالث

ممثل القيصر الخاص — تداخل المانيا في الشؤون التركية

لم تكد تمضي الشهور الاولى من عام ١٩١٤ حتى كان النفوذ الالماني باسطاً جناحيه فوق كل دوائر الحكومة الاولى. وليمان فون سندرس كان قد وصل الى الاستانة واصبح صاحب اليد الطولى في ادارة شؤون الجيش التركي وتنظيم فرقه وتدريب ضباطه. كانت تركيا قد استدعت قائداً المانيا — فون درغلتز — لتدريب جيشها وتنظيمه واميرالاً انكليزياً ـ الاميرال لمبس لتنظيم بحريتها. ولم يمض ردح قصير من الزمن حتى فهم الجميع ان مهمة ليمان فون سندرس العسكرية لم تكن تشبه مهمة فون درغلتز او لمبس مطلقاً. ولكي يفهم القارىء حقيقة تلك المهمة اقول ان قوة الحكومة في العاصمة كانت تحت سلطة الفيلق الهمايوني الاول وحالما وصل الجنرال فون ساندرس عين قائداً لذلك الفيلق وعين الجنرال فون شلندروف رئيساً لاركان الحرب

لم يكد يعلم سفراء الدول بما جرى حتى اجتمعوا وطلبوا الصدر الاعظم واحتجوا على اعلاء فون سندرس الى منصبه الحالي. فاجابتهم الوزارة التركية ان ذلك التعيين لم يكن من الاهمية بمكان عظيم ولكن مجاراة لطلب السفراء اقيل فون سندرس من مركزه وعين مفتشاً عاماً للجيش ولكن لم يغير هذا التعيين الاخير الحالة لان ليمان فون سندرس اصبح في مركزه الجديد اكثر سلطة ونفوذاً منه في الاول

هذه خلاصة العلاقات الالمانية التركية قبل ابتداء الحرب — جنرال الماني رئيس اركان حرب الجيش التركي وجنرال الماني آخر مفتش الجيش العام وضباط عديدون يشغلون مناصب مهمة في الجيش التركي. وانور باشا الالماني قلباً وقالباً متقلد منصب نظارة الحربية ووكيل قائد الجيش العام

وقد جرى في بيتي حادثة دلت على اخلاق ليمان فون سندرس واظهرت لنا بعض الاسرار السياسية التي كانت لم تزل غامضة

في ١٨ فبراير شباط ١٩١٤ اعددتُ وليمة رسمية دعوت اليها النظار والسفراء وغيرهم

ممن له علاقة مهمة بسياسة البلاد . ومن جملة المدعوين كان القائدليانفون سندرس.
وحدث ان مركز القائد الى مائدة الطعام كان قرب ابنتي روث . جلس لابساً بدلته العسكرية الرسمية . والنياشين والاوسمة تسطع على صدره ولكنه بقي صامتاً رغماً عما قاسته ابنتي من الصعوبات لتجره الى حديث معها

وبعد انتهاء المأدبة اتاني فون ميوشس احد الملحقين بالسفارةالالمانية وامائر الحنق بادية في وجهه وقال بعد ان جرب ان يملك قياد نفسه

— ياحضرة السفير لقد ارتكبت خطأً فادحاً

فصعقت لهذه العبارة وقلت

— ماهو ذلك الخطأ . فقال

— انك اغضبت الفيلد المرشال فون ساندرس لانك وضعتهُ الى مائدة الطعام في مركز ادنى من مراكز بقية السفراء وهو ممثل القيصر الشخصي وعلى الاقل يجب ان يكون مركزه معادلاً لهم . بل يجب ان يكون ارفع من السفراء والنظار معاً .

لم اكن انا الذي رتبت المراكز لحسن الحظ — بل كنت قد ارسلت القائمة الى سفير النمسا المركيز بالافيسيني وكان اذ ذاك اكبر ثقة في العاصمة على هذه المسائل الدقيقة .فكتب المركيزامام كل اسم رقماً هندياً بحبر احمر يدل على مركزه وكان نمرة فون ساندرس ١٣ فجاءت كرسيه قرب آخر المائدة فحنق وغضب ولم يفه بكلمة اثناء المأدبة

جربت جهدي ان افسر ذلك لفون ميوشس ودعوت المسيو بانفيلي احد مستشاري السفارة النمساوية — وكان بين المدعوين — وسألتهُ ان يجرب جهده ليزيل سوء التفاهم فنجح ظاهراً ولكن السفارة الالمانية لم تترك تلك المسألة وشأنها وبعد مضي عدة ايام ذهب سفير المانيا لزيارة المركيز بالافيسيني فسأل عن تلك الحادثة قائلاً

—اذا لم يكن فون ساندرس ممثل القيصر فمن يمثله اذاً ؟

فاجابهُ المركيز

— لم تجر العادة ان يكون للقيصر ممثلان رسميان في عاصمة واحدة ولما رأى ونغنهايم ان البحث لايجديهِ نفعاً رفع الدعوى الى الصدر الاعظم فحولها هذا الى مجلس الوزراء ليبت حكمه فيها

فبحث هذا المجلس بحثاً دقيقاً في هذه المسئلة وقرر اخيراً ان مركز ليمان فون ساندرس يجب ان يكون ارفع من مراكز السفراء ولكن ادنى من مراكز النظار ولم يكد يعلم السفراء بهذا القرار حتى رفعوا احتجاجاً قوي اللهجة وعزموا ان يتركوا الحفلات الرسمية معاً اذا جعل مركز ليمان فون ساندرس ارفع من مراكزهم

وكانت النتيجة بعد هذه الحادثة انه لم يدعَ ليمان فون ساندرس الى حفلة رسمية مطلقاً. ومن اظرف ماقيل في هذه الحادثة عبارة نطق بها السر لويس ماليت السفير الانكليزي قال — نشكر الله لان هذه الحادثة لم تقع في بيتي او سفارتي اذ لوحدثت فيها لكانت صحف العالم حبرت المقالات الضافية عن توتر العلاقات بين انكلترا والمانيا

انتهت هذه الحادثة وانقطع ذكرها ولكن ليمان فون ساندرس أفشى سراً سياسياً عظيماً بتصرفه ذاك. كان الكل يعتقدون انه جاء تركيا لينظم جيشها ولكن اكتشفنا بعد تلك الحادثة البسيطة ان ليمان فون ساندرس كان ممثل القيصر الخاص انتخبه كما انتخب ونفهام من قبله آلة لتنفيذ مآربه وتحقيق احلامه

اما انا فارسلت الى نظارة الخارجية في واشنطون واطلعتها على الحادثة تماماً واظن ان باقي السفراء فعلوا نفس الشيء والماجور جون تايلر الملحق العسكري بالسفارة الامريكية في الاستانة علق عليها اهمية كبرى

وبعد هذه الحادثة بنحو شهر كان الماجور تايلر والقبطان ماكولي قبطان البارجة الامريكية الراسية في مياه البسفور في القاهرة فدعيا لتناول طعام الغداء مع اللورد كتشنر فاطلع الكبتن اللورد على هذه الحادثة ولما انتهى نظر اليهِ اللورد كتشنر وقال

وأية اهمية تعلق على هذه الحادثة؟

فقال الكبتن ماكولي

اني اعتقد انها تعني انهُ عند نشوب الحرب الكبرى تكون تركيا حليفة المانيا واذا لم تساعدها فعلياً في كل المقدمات الحربية فعلى الاقل ترسل قسما من جيشها الى القوقاس فيشغل قسماً من الجيش الروسي فتخف وطأة روسيا في الجبهة الشرقية.

فاصغى اللورد كتشنر الى كلماتهِ ووقف مفكراً ثم نظر اليه وقال

— اصادق على ماتقول

. . . .

مضى عدة اشهر والضباط الالمان يدربون الجيش التركي كأنهم كانوا يعدونهُ للحرب المقبلة. وفي اوائل يوليو (تموز) استعرض جلالة السلطان وبرفقتهِ خديو مصر وولي العهد ذلك الجيش . في هذا الاستعراض وجدنا ان الجيش التركي الذي كان منذ ستة اشهر مجموع رجال لا نظام لهم ولا ترتيب اصبح الآن جيشاً منظماً على احسن الطرق الالمانية يديره ضباط المان قديرون

وحينما دعاني جلالة السلطان الى مضربه الخاص بعد انتهاء الاستعراض هنأتهُ على ذلك التقدم السريع فابدى اسفه على ما رآه من الاهتمام بتنظيم الجيوش لانه علم ان ذلك لم يكن الا مقدمة لحرب طاحنة تلتهم الأخضر واليابس وقد كان جلالتهُ محباً للسلام

لاحظت اثناء الاستعراض ان مراكز سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا الخاصة كانت فارغة ولما سألت عن السبب قال لي وزير ان الحسد قد اكلت قلوبهم ففضلوا التخلف عن الحضور

***

— بين تركيا واليونان —

بحسب نصوص معاهدة لندن التي عقدت في ٣٠ ايار سنة ١٩١٣ بقي كل من جزيرتي كيوس وميتيليني تحت سلطة اليونان ومركزها الحربي لا يخفى على المطلع. وفي نفس الوقت كانت المزاحمة والاحتكاك بين العنصرين اليوناني والتركي تزداد يومياً وخصوصاً في المدن التي كانت على شواطىء اسيا الصغرى التي كان ينظر اليها اليونان كقسم من مملكتهم العظيمة التي نشأت عند فجر التاريخ . وان لنا في ازمير مثلاً واضحاً على الحالة التي كانت مستولية عندئذ . ان تجارة ازمير واكثر ما فيها من صنائع ومكاسب وموارد للأرتزاق كانت بيد سكانها اليونانيين النشيطين. هؤلاء اليونانيون كانوا اسمياً تحت سلطة الاتراك واعضاء في الامبراطورية العثمانية ولكن بالحقيقة سراً وجهاراً — كانوا يميلون الى مملكة اليونان ويبذلون وسعهم لمساعدتها ولذلك كان الاتراك يدعون تلك المدينة «بأزمير الخائنة» (١)

فهم ساسة المانيا وجود التنافر بين العنصرين اليوناني والتركي وعرفوا تمام

---

(١) ان ما حدث لازمير بعد الحرب الكبرى معروف لدى الجميع

المعرفة ان وجود اليونانيين في اسيا الصغرى كان حائلاً منيعاً في سبيل وصولهم الى ضالتهم المنشودة — المانيا الكبرى — فاخذوا يوغرون صدور الاتراك حقداً عليهم وأشاروا باستعمال «السبي والابعاد» للقضاء على اماني اليونانيين الوطنية والتخلص منهم . فوجد هذا النداء اذناً صاغية في زعماء تركيا الفتاة فبدأوا للحال بنقل اليونانيين من محل الى آخر وقد صرح لي بعد ذلك الاميرال بوزدم الالماني ان مقاصد المانيا لم تكن الا حربية فقط . وحينما اشتدت الفظائع وأنذرت الشركات الاميركية الموجودة بازمير بأن تقيل مستخدميها اليونانيين وتستخدم بدلا منهم اتراكا نضب صبري وذهبت الى طاعت وقلت له — ان اعمالكم هذه الشائنة ستترك لكم نقطة سوداء في التاريخ وستخلد لكم ذكراً مكروهاً بين متمدنة الارض وخصوصاً في الولايات المتحدة . فأخذ طلعت يشرح لي اسباب تلك الاعمال ومقدماتها ملقياً التبعة على الاقوام العديدة التي كانت خاضعة للسلطان التي كانت السبب الوحيد لفقد املاك تركيا الشاسعة وامصارها المترامية الاطراف الى انهُ قال

— واذا كانت البقية الباقية من تركيا تود الحياة فيجب ان تكون تركيا للاتراك.

وذلك هو تمام ما فعله الاتراك بالشعب الارمني — انما كان أشد هولا واكثر فظاعة — ولكن كان للعنصر اليوناني حكومة مستقلة تفكر بمصالح شعبها اينما حل وعلم زعماء الحكومة العثمانية انه لابد لاعمالهم تلك من ان تجرهم لخوض غمار حرب عوان مع دولة اليونان لكنهم لم يجربوا ان يضعوا حداً لتلك الفظائع لان الحقد كان قد بلغ من زعايا الاتراك مبلغاً لم يتمكنوا بعده من ضبط انفسهم فشرعوا باكتتاب كبير لكي يشتروا مدرعة قوية كانت تبنيها الحكومة البرازيلية في احواض انكلترا . والحكومة العثمانية نفسها كانت قد اوصت على مدرعة اخرى من نوع الدردنوط في انكلترا وعدد من الغواصات والمدمرات في فرنسا . والدافع لهذا التأهب البحري العظيم كان معلوماً في كل الاندية السياسية في العاصمة لان الحكومة كانت قد عزمت ان تشهر الحرب على اليونان حالما يتم تأهبها ذاك . وبات الكل ينتظرون استعار نار الحرب في القريب العاجل

ولكن اتاني جمال باشا في اول حزيران (يونيو) وكان اذ ذاك ناظر البحرية وأحد الثلاثة الذين كانوا يديرون دفة السياسة في تركيا فرأيت على وجهه امائر الغضب و الاضطراب ولما بدأ كلامه بواسطة الترجمان لاحظت ان شعر لحيته ينتفض من شدة

غضبه وتهيجه . فهمت من حديثه ان حكومة اليونان كانت تخابر حكومة الولايات المتحدة بشأن ابتياع مدرعتين من الاسطول الاميركي — ايداهو ومسيسبي — وألح عليّ ان اتداخل في المسألة وأمنع البيع . قال :

— ان الاتراك ينظرون اليكم كصديق مخلص وأنك ياحضرة السفير اعربت من قبل عن تشوقك لمساعدتنا فها قد سنحت لك فرصة مناسبة فلاتدعها تضيع سدى

اما البراهين التي قدمها جمال فهذه خلاصتها — ان حكومتي اليونان وتركيا على شفا حرب كبيرة فبيع هاتين المدرعتين يعدّ عملاً مخالفاً لقوانين الحياد . واذا كان هذا البيع عملاً تجارياً بحتاً فلتعط الحكومة التركية فرصة لتزيد على الثمن الذي دفعته الحكومة اليونانية «اذ نحن مستعدون ان ندفع أكثر من اليونان »

وحيث ان الاتراك كانوا قد اعلنوا عن رغبتهم في اشهار الحرب، حالما تنتهي مدرعتهم الأولى بادر اليونان للمخابرة مع حكومة الولايات المتحدة بشأن ابتياع تينك المدرعتين — ايداهو ومسيسبي — ولم تكونا من الطراز الاول ولكن بمساعدتهما كان يتمكن الاسطول اليوناني من الانتصار على اسطول تركيا قبل ان تأتي المدرعتان لنجدته . ولذلك كانت الحكومة اليونانية قد عزمت ان تهاجم تركيا قبل ان تستلم المدرعتين الكبيرتين

اما السفير ونغنهايم فاهتم بهذه المسألة اهتماماً عظيما

واني لأذكر اني بعد زيارة جمال لي كنت ذاهباً مع ونغنهايم للنزهة خارج المدينة واذا به قد بدأ يتكلم عن موقف اليونان حتى توصل الى موضوع اليونان والمدرعتين الاميركيتين وأراد ان يقنعني ببراهين استدللت من سرده لها أنه علم جمال ان يذهب الي ويطلب مني ان اتداخل في المسألة وعلمه ماذا يقول والعبارة الثانية هي من جملة ماقال لي

تصور ان اميركا على شفا حرب مع عدوتها اليابان وان انكلترا ارسلت اسطولاً ضخماً لشد ازر حليفتها الشرقية فماذا يكون شعور الرأي العام في الولايات المتحدة ازاء عمل انكلترا

ثم أردف كلامهُ هذا بعبارة ولا يزال صداها يرن باذني واني لاازال اذكره على متن جواده واقفاً وهو يقول «اني اعتقد ان الولايات المتحدة لا تعلم حقيقة ماهي فاعلة لان مجرد بيع هاتين المدرعتين قد يذكي نار الحرب الاوروبية الكبرى »

نطق ونغنهايم بهذه العبارة في الثالث عشر من حزيران (يونيو) سنة ١٩١٤ قبل

ابتداء الحرب الكبرى بنحو ستة اسابيع . علم اذ ذاك ان المانيا كانت تتأهب لذلك العراك الهائل وان استعدادها له لم يكن قد تم وكباقي السفراء كان يسعى بكل ما لديهِ من الحنكة والدربة لمنع حدوث ازمة ما تكون سبباً لاشعال نار الحرب قبل ان تتم المانيا استعدادها النهائي

اخيراً اقترح عليّ ان ابرق الى الرئيس ولسن فأوضح له حراجة الموقف ولكني رفضت ذلك الاقتراح في الحال

وبقي جمال ورفاقه يترددون علي ويطلبون مساعدتي فأشرت عليهم اخيراً ان يخابروا سفيرهم في واشنطون ليخابر الرئيس رأساً لعلهم يفلحون . فعملوا حسب اشارتي ولكن ممثل حكومة اليونان كان اسرع منهم اذ في الساعة الثانية بعد ظهر ٢٢ حزيران (يونيو) اتى الملحق العسكري اليوناني في واشنطون مع الكومندان تسوكلاس الى مكتب الرئيس ولسن وامضيا شروط البيع ولما تركا المكتب التقيا بالسفير العثماني ذاهباً اليه بذات الشأن وكان قد تأخر بضع دقائق فقط

استلم اليونانيون المدرعتين وغيروا اسميهما واخذوا يباهون بهما مهددين تركيا لانهما كانتا اقوى مدرعات الاسطوابن اليوناني والتركي على الاطلاق

في اثناء هذه المدة كنا قد انتقلنا الى مصيفنا حيث تجتمع كل السفارات في بقعة جميلة من الارض تطل على البسفور — ذلك الممر الضيق الذي طالما كان سبباً لحروب طاحنة اهلكت الوفاً ومئات الالوف فقضينا اشهر يونيو ويوليو بفرح وهناء وكنا تقريباً نجتمع معاً كلّ يوم هـذا يتباحث مع ذاك وذلك يعلق على المسئلة اليونانية من الحواشي والهوامش ماشاءه الخيال والتصور . هنا الصدر الاعظم وحوله عدد من السفراء والملحقون وهنالك اعضاء الوزارة يتهامسون. انما شيء واحد لاحظته في حديث الجميع وهو ذكر الحرب . وظهر لي ان كلاً منا كان يعتقد ان تلك الحياة السعيدة الهادئه صارت على وشك الانتهاء وانهُ في كل دقيقة كان ينتظر تطاير شرارة تبعث في أوربا لهيباً لم يرَ مثله التاريخ

ولكن لما وقعت النكبة لم الاحظ تغيراً مهماً . في ٢٢ تموز (يوليو) وردتنا اخبار مقتل ولي عهد النمسا وزوجته فتلقينا الاخبار بسكون ورزانة . اجتمعت بطلعت بعد مضي يومين وتباحثنا ملياً في الموقف السياسي ولـكنهُ لم يبد ادنى تلميح

الى ذلك ولا علق حاشية واحدة على ذلك الحادث . واني اعتقد الآن اننا اصبنا اذ ذاك بضرب من التشنج في العواطف فلم نقلق ولم نهيج

ولكن لم يمض ردح قصير من الزمن حتى فكت الالسنة من اعتقالها وبدأ الكل يتكلمون ولكن عن ماذا ؟ — حرب ! حرب ! حرب عمومية ! حرب طاحنة ! ولما اجتمعت بالملحق العسكري الالماني ومراسل الفرانكفورتر زيتونغ(١) وبعض المستشارين قال احدهم عند وقوع الحرب ستنتهز الولايات المتحدة الفرصة السانحة فتستأثر بتجارة قارتي اميركا

ثم لما زرت المركيز بالافيسيني النمساوي لانوب عن الامة الاميركية بتقديم فروض التعزية له استقبلني وعلامات الحزن والكآبة بادية في محياه كأنهُ فقد ولداً وحيداً . وأعربت له عن نفوري الشخصي و نفوراتي من ذلك العمل الفوضوي الشنيع . فقال — نعم — نعم . ان ذلك العمل فظيع ولكن سربيا ستعاقب على عملها . يجب عليها ان تعوّض . وزارني بالافيسيني بعد ذلك بعدة ايام فأخذ يتكلم عن الجمعيات الوطنية السرية التي كانت ترمي الى ضم البوسنة والهرسك الى سربيا وقال ان حكومته ستلح على حل هذه الجمعيات ومعاقبتها عقاباً شديداً وذاك كان محور البلاغ النهائي الشهير الذي ارسلته النمسا الى سربيا

في الرابع من تموز (يوليو) اقيمت حفلة تذكارية في كنيسة القديسة ماري عن نفس الارشيدوق والاشيدوقة . جلس السفراء في المقاعد الامامية ولا ازال اذكر ذلك المنظر المهوب لانهُ كان آخر مرة اجتمعنا فيها معاً . وحينما انتهى الاحتفال ركبنا سياراتنا وذهبنا الى بيوتنا . ذلك النهار كان الرابع من شهر يوليو — نهار عيد الحرية الاميركية — وكل المدرعات في المرفاء كانت مزدانة بالاعلام نهاراً وبالانوار ليلاً

لم يكد ينتهي السفراء واعضاء الوزارة من القيام بالواجب نحو الارشيدوق القتيل حتى بادروا الى السفارة الاميركية ليهنئوا ممثل الشعب الاميركي بعيد استقلاله المجيد

ولكني لاحظت ان شخصاً واحداً كان متغيباً عن الكنيسة والسفارة وكان قد عودنا رؤيته في كل مكان. ذلك الشخص كان . فون ونغنهايم السفير الالماني

---

(١) اسم جريدة من اشهر جرائد المانيا

تعجبت لتغيبه ولكن زال العجب حينما عرفت السبب وذلك انه كان في المانيا لأن القيصر دعاه لاجتماع خصوصي عقد في بوتسدام في الخامس من شهر يوليو وقرر ذلك المؤتمر ان يدير رحى حرب طاحنة لاتبقي ولاتذر

الفصل الرابع

المانيا تمد جيش تركيا

انقضت الأيام القليلة بعد حادثة سراجيفو والصحف الاوربية لاتلهج الا بذكر الحرب واعداد الجنود وتجهيزها وتتغنى بالوطنية الصادقة التي كانت تبديها جميع الشعوب في سبيل دفاعهم عما يعتقدونهُ حقاً وعدلاً

اما تركيا فلم تكن قد خاضت غمار تلك الحرب الطاحنة واعلن مديرو دفة سياستها أنهم سيحافظون على الحياد التام . ولكن رغماً عن كل هذه الاقوال العلنية كان يظهر من مراقبة سير الامور في الاستانة ان تركيا لم تقل عن باقي الممالك الاوروبية تأهباً للحرب . فبدأت بتعبئة جيشها تحذراً من طارق مفاجيء

ولكن شتان بين ما رأيناه في عاصمة آل عثمان وما كان يحدث في عواصم اوروبا . — انما يبديه الرجال من الشجاعة النادرة وما تظهره النساء من الاستعداد لبذل كل شيء في سبيل الوطن يلبسان فظائع الحرب واهوالها حلة قشيبة اذ تصبح مظهراً تتجلى فيه العواطف الشريفة فننسى ماتجره تلك الاعمال من الاهوال والويلات والمصائب

لكن لم أر مدة اقامتي في الاستانة اثراً ما في هيئة واعمال الجنود العثمانيين يدل على ان افئدتهم تنطوي على شجاعة وثبات ووطنية صادقة

كنت ارى في صباح كل يوم الجنود العثمانيين يمرون امام عيني وقد [illegible] الويتهم فوق رأس التركي والعربي والارمني والشركسي وغيرهم وعلامات الفقر والجوع والتعب بادية على وجوههم . لم ار في عيونهم نور الفرح الذي طالما نجده في جنود يرقصون طرباً عند اقتراب المعركة لاعتقادهم انهم يدافعون عن حق مهضوم لانهم (الجنود العثمانيون) سيقوا الى القتال رغماً عن ارادتهم وعواطفهم (١)

---

(١) ما اشد الفرق بين هذه الحالة وحالة الجيش التركي الوطني بعد الهدنة

لم نكن قد تحققنا بعد المركز الذي صدرت منهُ الاوامر لتعبئة الجيش العثماني ولكن علمنا بعدئذ ان مصدرها لم يكن انور ولا طلعت ولا الوزارة العثمانية ولا جمعية الاتحاد والترقي بل صدرت من مركز القيادة العامة في برلين بواسطة ممثليهما في الاستانة

كان الجنرال فون سندرس وبرونسار يديران هـذه الاعمال الهمة بمساعدة الضباط العديدين لانهُ حالما اجتازت الجيوش الالمانية نهر الرين ارسل مركز القيادة العامة في برلين تعليمات لاسلكية الى السفير الالماني في الاستانة ليبدأ بتنفيذ ماقضى الليالي الطوال في سبيل اعدادطريقهِ ــ وهو مساعدة تركيا الحربية

ان قوانين الحياد لا تجيز ان يكون لدولة ما محطة لا سلكية في ارض مملكة اخرى لا تزال على الحياد ولو اسمياً فقط . ولذلك اعلن السفير الالماني ان المحطة اللاسلكية العظيمة التي كان يبنيها الالمان في ضواحي العاصمة اصبحت منذ تلك الساعة تحت سلطة الحكومة العثمانية . ولكن لم يقنع هذا السبب احداً منا حتى ان نفنهايم نفسهُ كان كثيراً ما يشير اليها « كمحطتنا اللاسكية الجديدة » وكثيراً ماكان يقول لي

— لنذهب معاً ونراها . انها من اعظم المحطات اللاسلكية في العالم فنتمكن من الاطلاع على الرسائل الصادرة من برج ايفل في باريس. وعرض عليَّ استعمالها مراراً عند انقطاع سبل المواصلات العمومية

اما عن حركة الضباط الالمان فحدث ولا حرج . هم كانوا يديرون حركة تعبئة الجيش ولم يكن انور يقوم بعمل ما قبل استشارتهم . وفي نهاية ذلك الشهر غصت الشوارع بهم وبسياراتهم العديدة التي كانوا قد جمعوها من السكان فيسيرون بها بسرعة عظيمة معرضين الاهالي لخطر الدهس ، وامتلأت بهم القهوات والملاهي يتعاطون بنت الحان على انواعها بعد ان نهبوها من التجار قوة وقسراً

وذلك هو المبدأ — مبدأ النهب — الذي تمشت عليهِ الحكومة التركية في جميع مايحتاجهُ الجيش من مؤن وذخائر

وتفصيل ذلك ان الضباط الاتراك كانوا يقبضون على كل حصان او بغل او جمل او بقرة اوخروف ويأتون به الى المأمور المعين لذلك وفي احد الايام اجتمعت بأنور باشا فقال لي انهم جمعوا ماينيف على ١٥٠،٠٠٠ من الحيوانات المتفرقة

وكان عملهم هذا — كما سيجيء — من اعظم العوامل التي ادت بالوف من النفوس للموت جوعاً وذلك لانهم لم يتركوا من الحيوانات في المزارع والحقول ما يكفي للقيام بعمل الفلاح فانحطت الزراعة وقل القوت والطعام

وعدا ذلك كان الضباط الاتراك يدخلون مخازن التجار الكبيرة ويأخذون ما لديهم من البضاعة ثم يعطون صاحب المحل ورقة يقولون فيها انهم استلموا كذا وكذا. ولكن التجار كانوا يعلمون ان الحكومة لم تدفع ثمن ما اخذته في حربي طرابلس والبلقان فلم ينتظروا ان يقبضوا ثمن بضائعهم المسلوبة. لكنّ عدداً من الذين كانوا يعرفون القانون وكان لهم قوة سياسية يستندون اليها طلبوا من الحكومة ان تدفع لهم شيئاً مقابل ما خسروه فحصلوا تقريبا ٧٠ بالمئة ولا يجهل أحد مصير الثلاثين في المئة الباقية — جيوب الضباط !!

ومن اظرف ما عرفت عن اعمال الضباط بهذا الخصوص — عمل يضحك ويبكي معاً وهو ان بعضهم دخلوا احد المحلات واذ لم يجدوا شيئاً يتمكنون من نهبه باسم الجيش اخذوا ما وجدوه فيه من كاسات حريرية ومشدات للسيدات وفرضوا على رجل آخر يتاجر بثياب الاولاد والسيدات ان يقدم عدداً معلوماً من الاحرامات واذ لم يفعل ذلك في الوقت المضروب نهبوا ما لديه من البضائع وبعد عدة ايام رأى بضائعه في مخازن جاره معروضة للبيع

تلك هي الطريقة التي استعملها الضباط لجمع الاموال

رايت انور في احد الايام وقد اشتدت وطأة الضباط على الفلاحين والتجار فقلت له ان تلك الاعمال تؤدي بالمملكة الى خراب عاجل ودمار اكيد. ولكنه لم يعبأ بأقوالي ولم يخفق فؤاده الماً لتلك الاعمال بل كان يفتخر بأنه انشأ جيشاً كبيراً مجهزا من لاشيء

بلغ عدد الجنود التي جمعها انور نحو المليون ونصف المليون وبقي نحو مليون عائلة في انحاء المملكة وليس لهم من يساعدهم على القيام باعباء الحياة والجوع فتك بهم فتكاً ذريعاً ! اما الحكومة التركية فكانت تدفع لكل جندي في جيشها نحو ربع ريال في الشهر

وما سأقوله عن تداخل الالمان في هذه الاعمال ليس مبنياً على اعتقاد شخصي بل على براهين حسية احدها أن الالمان كانوا يجمعون كثيراً من الحاجات والامتعة

باسم الحكومة الالمانية . ولدي الآن صورة فوتوغرافية يظهر فيها الملحق العسكري الالماني يستلم شحن سفينة كان قد طلبها احد تجار العاصمة وتاريخ الصورة ٢٩ ايلول سبتمبر سنة ١٩١٤

فنرى اذاً انه قبل ان تدخل تركيا في الحرب بنحو شهر كامل كان الالمان في عاصمتها اصحاب الامر والنهي

الفصل الخامس

غوبن وبرسلو

في العاشر من شهر آب (اغسطس) ذهبت لملاقاة باخرة ايطالية كانت قادمة من البندقية وعليها ابنتي وصهري واولادهما . ولم تكد تقع العين على العين حتى لاحظت علامات التهيج بادية على وجوههم فسألتهم عن السبب فقالوا انهم شاهدوا معركة بحرية في بحرايجه . ولما وصلنا الى البيت سألت ابنتي عن تفصيل ذلك فقالت

— كنا بالامس نتناول طعام الغداء على ظهر الباخرة واذا بي ارى سفينتين غريبتي الشكل عند الافق . فأسرعت الى المنظار وحولته اليهما وعرفت انهما مدرعتان — الواحدة اعتيادية والثانية ذات شكل مخصوص لم اقدر ان اتبينه جيداً

راقبناهما واذا بسفينة صغيرة الحجم خفيفة الحركة تقترب منهما بسرعة ثم سمعنا طلقات مدافع . لم نفهم في بادىء الامر حقيقة الواقع ولكن طرأ على فكرنا اننا كنا نشاهد معركة بحرية . ثم رأينا المدرعتين قد غيرتا ناحية مسيرهما وجعلتا تطاردان السفينة الصغيرة ولكن لم يطل الوقت حتى رأيناهما راجعتين . عند ذلك اقتربت منا تلك السفينة الصغيرة فاعتراني خوف شديد ولكن لم يحدث ما يكدرنا بل تبادلت السفينتان بعض الاشارات ثم انصرفت واخبرنا قبطان سفينتنا بعد ذلك ان المدرعتين اللتين رأيناهما كانتا مدرعتين المانيتين تحاولان الفرار من الاسطول الانكليزي بدخولهما الدردنيل

بعد ذلك بنحو ساعة التقيت اتفاقاً بونغنهايم فاخبرته ما نقلته ابنتي فاهتم به اهتماماً شديداً . ولم نكد ننتهي من تناول طعام الغداء حتى قرع الباب واتى الخادم يقول ان البارون فون ونغنهايم والمركيز بالافيسيني يودان مقابلة مسز مورغنثو — ابنتي — فذهبت اليهما فطلبا اليها ان تعيد على مسمعهما خبر الحادثة



﴿ بعض البحارة الالمان على دكة
« الغوبن » وقد ارتدوا الملابس البحرية التركية

التي شاهدتها في بحرايجه . وبعد ذلك اخذا يسألانها بعض الاسئلة الدقيقة ـ من جملتها عدد الطلقات التي سمعتها والى اي ناحية توجهت المدرعتان الالمانيتان — وما علقه الركاب على تلك الحادثة من الحواشي

ولما انتهيا من ذلك شعرت ان عبئاً ثقيلا قد ازيح عن ظهريهما لأن ابنتي كانت قد اخبرتهما كل ما يودان علمه عن المدرعتين غوبن وبرسلو وكيف سلما من الاسطول الانكليزي وكيف اتجهتا الى الدردنيل

في اليوم الثاني دعتني اعمالي الرسمية الذهاب الى السفارة الالمانية . ولكن ظهر لي اذ ذاك ان فكر ونغنهايم كان قلقاً مضطرباً لا يكاد يجلس على كرسيه حتى ينهض ويمشي نحو النافذة وينظر الى البوسفور ثم يعود الى مكانهِ ثم ينهض ثانية ويتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباًوهو مقطب الحاجبين

فنهضت من مكاني وقلت — انك قلق الافكار اليوم وسأعود اليك في فرصة اخرى ولكنهُ صرخ بأعلى صوته

— لا ! لا ! ابق مكانك . ان هذا اليوم سيكون يوماً عظيماً في تاريخ هذه الحرب — ابق بضع دقائق فتسمع اخباراً لها تأثير عظيم في علاقة تركيا بالحرب الحاضرة

ثم ركض الى الخارج واتكأ على الدرابزون . واذا بمركب صغير قد خرج من ناحية المدرعة كوركوفادو الالمانية — فأسرع ونغنهايم اليهِ واختطف منهُ غلافاً وفضهُ وقرأ ما فيهِ واذا بهِ دخل صارخاً

— سلمتا ! سلمتا ! فقلت انا مدهوشاً

— ماذا سلم ؟ من سلم ؟

— ان الغوبن والبرسلو قد دخلتا الدردنيل — ولكنهُ سكت فجأة

— واقترب مني وقال — لاشك انك عرفت ان الحكومة التركية قد ابتاعت تينك المدرعتين والاميرال سوشون سيدخل في خدمة جلالة السلطان

كان فرح السفير ونغنهايم بسلامة غوبن وبرسلو ودخولها الدردنيل لا يوصف. لانهُ علم ان نجاحه في عمله هذا كان اعظم انتصار سياسي له في الشرق لانهُ كان قد ادار بنفسه حركات تينك المدرعتين وأدخلهما الدردنيل وباعهما ظاهراً للحكومة التركية وبذلك تكللت مساعيه في تركيا بالنجاح التام وبات ينتظر ذلك اليوم حينما يتقلد منصب مستشار الامبراطورية الالمانية

وانا اعتقد ان المدرعتين كان لهما اعظم تأثير في تاريخ وسيرها الحرب الكبرى وقليل من تمكن ان يقيس مبلغ تأثيرهما في سلوك تركيا ولكن ما عقب ذلك من الحوادث اظهر لنا جلياً اسباب فرح ونفهايم وتهلله

كانت غوبن طراداً قوياً حديث البناء سريع الحركة ومع ان الطراد برسلو لم يكن في درجتها من القوة والمناعة كان ذا سرعة فائقة وحركة خفيفة

قضت غوبن وبرسلو الاشهر السابقة لاعلان الحرب بالتجوال في بحر الروم وحينما حدث الانفجار وخاضت المانيا غمار الحرب كانتا في مسينا تأ خذان فحما ومؤونة — وحتى الان لا ازال احسب وجود تينك المدرعتين الالمانيتين وكلاهما اسرع من اي بارجة في البحر المتوسط انكليزية اوافرنسية وخصوصاً وجود غوبن التي زارت الاستانة مرتين وبات بحارتها يعرفون مداخل الدردنيل ومخارجه بكل دقة — من غرائب الصدف التي قلما تحدث في التاريخ!

ولكن من اين لهما ان تقاوما الاساطيل الانكليزية والافرنسية؟ انذرتهما الحكومة الايطالية انه عند انقضاء ٢٤ ساعة يجب عليهما ان تتركا مرفأ مسينا وفي الخارج كانت البوارج الانكليزية واقفة بالمرصاد. كانت بوارج انكلترا قد سدت عليهم كل منافذ الفرار لأن حصون جبل طارق ومدخل قنال السويس وغيرها من الجزر في وسط البحر كانت تحت سلطتها — فلم يبق لهما من منفذ خلاص الا مدخل الدردنيل وذلك حسبه الانكليز مستحيلاً نظراً للعهود الدولية وقوانين الحياد المتفق عليها وتركيا كانت لا تزال محافظة على حيادها رغماً عما كان للالمان من السلطة في ادارة شؤونها

ففي معاهدتي باريس ١٨٥٦ ولندن ١٨٧١ اتفق المتعاهدون ان لا يؤذن لبوارج حربية بالدخول الى الدردنيل الا باذن خاص من السلطان

بناء عليهِ سدت البوارج الانكليزية كل منافذ الخلاص الا منفذ الدردنيل لأنهم حسبوا انهُ عند وصول غوبن وبرسلو الى باب المضيق تقف العهود الدولية وقوانين الحياد سداً منيعاً في وجوههم فلا يتمكنون من الدخول

ولما انتهت المدة المعينة في مسينا وصل الى الاميرال سوشون رسالة لاسلكية مآلها — ان القيصر ينتظر منكم اختراق صفوف الاعداء. عند ذلك خرجت غوبن وفي اثرها برسلو وقد علت من ظهريهما اصوات التهليل والفرح واهازيج الحرب

والقتال واسرعتا متجهتين نحو الاسطول الانكليزي. فتبعتهما الكشافة الانكليزية غلوستر وكانت تنبىء اميرال الاسطول الانكليزي بكل حركاتهما وسكناتهما واذا بالاصوات قد خفتت والاهازيج قد سكنت والدارعتان قد غيرتا ناحية مسيرهما ولم تعد تتمكن الكشافة الانكليزية ان ترسل شيئاً مفهوماً عن اعمالها

عندذلك توجهت كلتا المدرعتين نحو الجنوب ثم حولت مقدمتيهما نحو الدردنيل فتبعتهما الكشافة الانكليزية وجربت مراراً ان تناجزهما معركة لعل الاسطول الانكليزي يتمكن من اللحاق بهما ولكن سرعتهما ساعدتهما على النجاة . في تلك الاثناء كان ونغنهايم قد ارسل الى الاميرال سوشون رسالة برقية يأمره فيها ان يدخل مضيق الدردنيل وان يرفع العلم العثماني حال دخوله لكي لا تقف القوانين الدولية حاجزاً في سبيل ذلك وأخبره ان المدرعتين اصبحتا منذ تلك الدقيقة في خدمة السلطان وأصبح اسم غوبن « سلطان سليم » واسم برسلو « مدللي » —

ذكرت فيما سبق ان تركيا كانت قد اوصت على مدرعتين من طرز الدردنوط في معامل انكلترا وأنها كانت قد جمعت ثمنهما بواسطة الاكتتاب العمومي فباعت النساء جواهرها وحليها ودفع الرجال قسماً من ايرادهم الشهري لذلك العمل الوطني ولما اعلنت الحرب كانت تركيا قد ارسلت بحارتها الى انكلترا لكي يستلموا البارجتين حالما يتم بناؤهما ولكن في تلك الدقيقة تداخلت الحكومة الانكليزية وضمت البارجتين الى اسطولها

فهاج الرأي العام في تركيا على عملها هذا ورأى ونغنهايم ان فرصة قد سنحت فأخذ يظهر للاتراك بواسطة الرسائل العديدة التي كانت ترسل الى الصحف العديدة من سفارته ان انكلترا عدوة الاسلام وأنها تجرب في كل برهة ان تنزل بهم الى ادنى الدركات وعرض على الوزارة ان يبيعهم غوبن وبرسلو — ولذا حينما دخلتا الدردنيل نشرت جريدة اقدام التركية بأحرف كبيرة

(اشتراء عظيم)

نجاح باهر للحكومة العلية

وشرحت بعد ذلك خبر تمنع انكلترا عن تسليم المدرعتين وكيف ان الحكومة الالمانية باعت غوبن وبرسلو للحكومة العثمانية

فتم لو نغنهايم بهذا العمل امران. اولاً ظهور المانيا بمظهر صديق صدوق لتركيا · وثانياً ايجاد مرفأ امين تبقى فيهِ غوبن وبرسلو سالمتين من هجوم الاعداء

اما انا فلم اغتر بهذا البيع لاني كنت عالماً ان حالة تركيا المالية لا تمكنها من دفع ثمن هاتين البارجتين. ومع ان الحكومة التركية وضعت حفنة من البحارة الاتراك بين بحارتهما الالمان وألبست البحارة الالمان والاميرال سوشون الطرابيش التركية لم يكن ونغنهايم في حديثهِ معي ليخفي ان المدرعتين كانتا لا تزالان قسماً تابعاً للاسطول الالماني وكثيراً ما كان يشير اليهما (كسفننا) حتى ان طاعت نفسه اخبرني مرات عديدة ان البارجتين تخصان تركيا بالاسم فقط

ولما رفع السفير اليوناني في برلين اعتراضه على بيع تينك المدرعتين كان جواب الحكومة — انهما لا تزالان قسماً من اسطولنا

ولما اعترض سفراء الحلفاء على وجود مدرعتين المانيتين في الاستانة كان جواب الحكومة — انهما اصبحتا قسما من الاسطول التركي ! ! فتأمل

ولو فرضنا ان الطرادات الانكليزية التي كانت لاحقة بغوبن وبرسلو دخلتا المضيق غير مكترثة للقانون الدولي وتبعتهما الى بحر مرمرة وأغرقتهما هنالك — فماذا تكون النتيجة ترى ؟

اني اعتقد انه لو حدث ذلك لامتنعت تركيا عن دخول غمار الحرب او على الاقل لامتنعت عن دخولها حليفة لالمانيا

فبوجود هاتين المدرعتين في مياه الاستانة زادت قوة الاسطول التركي على الاسطول الروسي وتأكدت تركيا ان روسيا لا تقدر ان تهاجمها بحراً

وزد على ذلك فقوة هاتين المدرعتين كانت كافية لارهاب سكان الاستانة وما فيها من الجنود العثمانية فتأكد ونغنهايم ان تركيا تساعد المانيا حينما تأزف الساعة وان أبت فبالقوة

وقد سمعت قصة قيل انها حدثت في احد اجتماعات الوزارة التركية لما كانوا يبحثون بشأن ابتياع غوبن وبرسلو والعهدة على الراوي :

كان الصدر الاعظم وجمال باشا معارضين لابتياعهما ابتياعاً اسمياً فقط فنهض عند ذلك انور وقال — اني قد امضيت شروط الشراء — ثم مد يده الى جيبهِ وأخرج مسدسه وألقاه على المائدة امامه واستأنف كلامه قائلاً

— ومن اراد ان يعارض فأنا مستعد لمقاومته

وبعد ان مضى بضعة اسابيع على وجود غوبن وبرسلو في مياه البوسفور التقى جاويد بك ناظر المالية بأحد المحامين البلجيكيين المعروفين بالعاصمة فقال جاويد

ياصديقي — عندي اخبار تسوءك جداً . ان الالمان قد احتلوا بروكسل

عند ذلك تقدم المحامي نحو جاويد ووضع يده على كتفه وقال بصوت رنان مشيراً الى غوبن وبرسلو

ولكن اخباري تسوءك اكثر . ان الالمان احتلوا تركيا بأسرها

الفصل السادس

كيف ابتدأت الحرب

ذكرت فيما سبق ان القيصر دعا ونغنهايم لاجتماع مهم عقده في بوتسدام في ٥ يونيو (حزيران) ١٩١٤. وانما دعي ونغنهايم لذلك الاجتماع ليبدي رأيه في موقف تركيا تجاه حرب اوروبية لانهم كانوا يعتقدون ان موقفها في الحرب المقبلة يؤثر جداً في مجرى الحرب . ولما اخبرني ونغنهايم عن ذلك الاجتماع لم يذكر اسماء الذين حضروا بل قال

— رؤساء اركان الحربية والبحرية اي فون مولتكي وفون تربتز وحضر ايضاً في ذلك الاجتماع كل اصحاب المصارف الكبرى ومديرو شركات السكك الحديدية وزعماء الصناعة الالمانية لان الحكومة تكن لتستغني عنهم في الحرب المقبلة

قال ونغنهايم

— عند ذلك سأل القيصر كلاً من هؤلاء بمفرده « هل انت مستعد للحرب؟ فأجاب الكل نعم الا اصحاب المصارف، الذين طلبوا فرصة اسبوعين ليدبروا موقفهم المالي مع بقية المصارف الكبرى في العالم

لم يكن احد يعتقد حتى ذلك الوقت ان حادثة سراجيفو ومقتل الارشيدوق وزوجته ستؤدي الى حرب طاحنة . ولذلك حينما انقضى الاجتماع ذهب القيصر في يخته الى نروج والمستشار الامبراطوري فون بتمان هلفغ ذهب في سياحته وونغنهايم رجع الى الاستانة كأن لم يكن اجتماع في بوتسدام لئلا تثور عليهم

الظنون. وبذلك تمكنوا من ان يعطوا اصحاب المصارف فرصة كافية لتدبير مركزهم المالي والتجاري

ومن الواضح ان ما صرح به ونغنهايم عن ذلك الاجتماع لم يكن الا دليلاً ناصعاً واعترافاً صريحاً ان المانيا ارادت وقوع الحرب فأشعلت نارها وأنا اعتقد ان العامل الذي دفع ونغنهايم للتصريح بأعمال ذلك المجلس انما هو الا عامل الافتخار بما اتته حكومته من بعد النظر ودقة التدبير وبالمركز الرفيع الذي حصله هو في عين الامبراطور

كثيرة هي الكتب الزرقاء والبيضاء والحمراء والصفراء التي ملأت اوربا بتفصيل وشرح العوامل التي دفعت الممالك العديدة لخوض غمار تلك الحرب الضروس. وعديدة هي المقالات الرسمية التي نشرتها الحكومة الالمانية لتظهر للعالم انها براء من تهمة الحرب.على ان تلك الكتب والمقالات لم تغير حكمي من حيث القاء تبعة هذه الحرب على هذه المملكة او تلك

انا لم ابن حكمي الشخصي على قرائن الاحوال لاني اعلم ان تلك المأساة المفجعة ولدت في دماغ القيصر وأبرزها رجاله الى حيز الوجود والبارون فون ونغنهايم احد مولدي تلك الفكرة وأحد العاملين على تحقيقها اخبرني بكل ما حدث فأي نفع نجتنيه اذا بقينا نتباحث ونتجادل ونحن نعلم الحق اليقين ؟

كان موعد اجتماع ذلك المؤتمر كما ذكرنا في ٥ (يونيو) حزيران وأرسل البلاغ النهائي الى سربيا في ٢٢ حزيران اي انه مضى نحواً من اسبوعين بين هذا وذاك وهي المدة التي طلبها اصحاب المصارف في المانيا لتصفية حساباتهم وتدبير مركزهم المالي. واذا راجعنا تاريخ اسواق العالم المالية اثناء هذه المدة نلاحظ ان الاسعار في كل انحاء العالم هبطت هبوطاً عظيماً لان متمولي المانيا كانوا يبيعون كل ما لديهم من الاسهم في الشركات المختلفة والمصارف العديدة لكي يجمعوا مالاً — نقداً — ليقوموا بنفقاتهم في الحرب المقبلة

تعجب كل من له المام بالشؤون المالية في ذلك الوقت من ذلك الهبوط السريع ولكن ما قاله ونغنهايم يعلل كل شيء تعليلاً معقولاً اذ من اين لاصحاب المصارف الانكليزية والاميركية والافرنسية وغيرها ان تعلم ان مؤتمر بوتسدام كان السبب في كل ذلك

لم اكن انا الرجل الوحيد الذي علم تفاصيل ذلك من فون ونغنهايم بل المركيز غاروني السفير الايطالي في الاستانة علم ذلك ايضاً لان ايطاليا كانت لا تزال حليفة المانيا. والسفير النمساوي المركيز بالافيسيني صرح بأن الدول المركزية كانت تنتظر وقوع الحرب

وذلك انه في ١٨ اغسطس آب ذهبت الى السفارة النمساوية لاهنئه بعيد ميلاد الامبراطور فرنسوا الرابع والثمانين . فأخذ السفير يخبرني اشياء كثيرة عن الامبراطور تدل على انه بالرغم عن تقدمه في السن كان مطلعاً كل الاطلاع على الاحوال السياسية في العالم . ولكي يبرهن عبارته الاخيرة قال

ذهبت الى فينا السنة الماضية وحظيت بمقابلة الامبراطور ومن جملة ما قاله الامبراطور انه لا بد من حرب اوروبية لان الدول المركزية لا تريد ان تعترف بمعاهدة بخارست (١) التي تحسبها بقية الدول القول الفصل في سياسة البلقان وانهُ لا بد من وقوع لحرب الاوروبية لانهاء تلك المسألة السياسية الكبرى. وكثيرون من المؤرخين يعتقدون ان معاهدة بخارست كانت من العوامل الكبرى في وقوع هذه الحرب وها آراء الامبراطور فرنسوا جوزف تؤيد صحة ما يعتقدون

حدث هذا الاجتماع الذي صرح بهِ الامبراطور في مايو (ايار) قبل مقتل الارشيدوق بنحو شهر كامل

فيتضح لنا اذاً ان الحرب الكبرى كانت واقعة لا محالة ولم تكن حادثة سراجيفو الا عود ثقاب اشعل نارها

وكثيراً ما كان ونغنهايم يحدثني عما تنوي عمله المانيا حينما تدخل باريس وتحرز نصراً نهائياً تاماً على اعدائها

خرجت مرة للنزهة فالتقيت بونغنهايم فأخذ يخبرني عن انتصارات المانيا الجديدة غربي نهر الرين مؤكداً لي ان نبوءتهُ عن دخول الجيش الالماني لباريس ستتم بعد اسبوع . ثم قال

---

(١) امضيت شروط هذه المعاهدة عند انتهاء الحرب البلقانية الثانية وفيها اقتسمت دول البلقان كل الاراضي العثمانية في اوربا الا الاستانة وما يجاورها ونالت كل من سربيا واليونان النصيب الاوفر فاوجست النمسا شراً من نجاح سربيا الحربي والاقتصادي كما ان مجرد وجود سربيا كمملكة صقلبية قوية كان معاكساً لتحقيق حلم المانيا الكبرى وسداً منيعاً في سبيل نفوذها الكلي في الشرق

— واذكر الآن انهُ لا يوجد روسيا او انكلترا او النمسا لتسألنا ان نعفو عن باريس كما فعلوا سنة ١٨٧١ . فننقل من عروس الغرب كل ما تحتويهِ من الآثار الفنية الجميلة

ولكن جاءت معركة المارن وانكسرت الجيوش الالمانية شر كسرة فخابت ظنون ونغنهايم ونجت باريس من اعدائها

وكانت قد بلغت ثقة ونغنهايم بالفوز مبلغاً عظيماً حتى انه بدأ يتكلم عن شروط الصلح — قال

— لا بد لفرنسا الآن من ان تدفع ٥٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ريال واذا اصرت على متابعة الحرب فسنضطرها ان تدفع اكثر من ذلك وسنحصل على مرافيء عديدة على كل الشواطيء فتكون كمحطات لاساطيلنا الحربيـة والتجارية وسنطلب ان يضم الينا كل الاراضي الذي تتكلم اكثرية سكانها اللغة الالمانية

وفي حديث آخر قال —

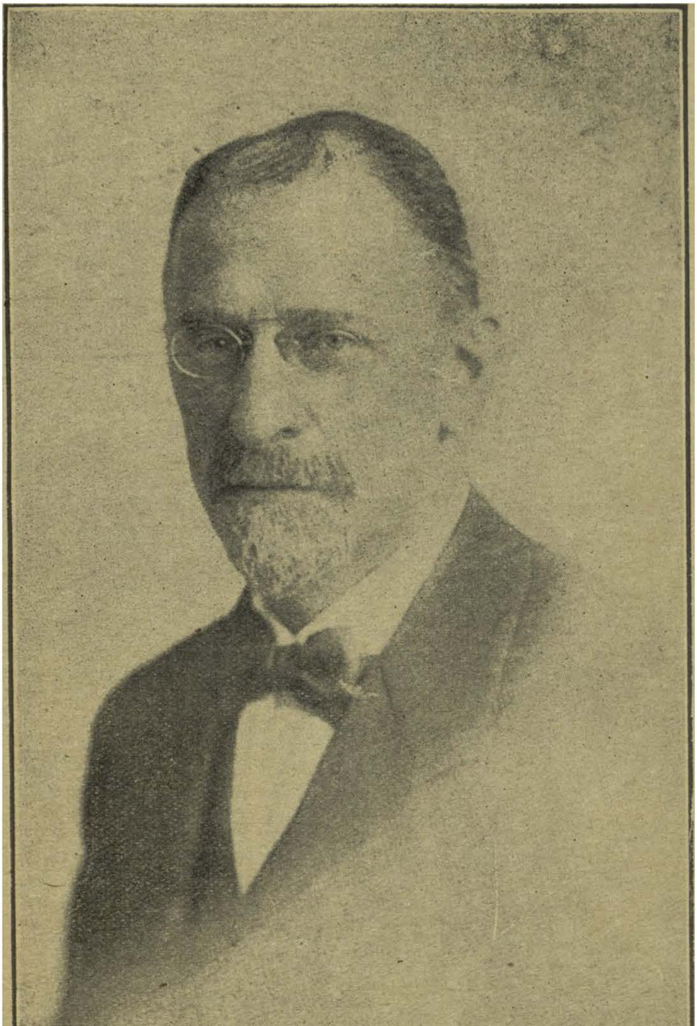
— اذاجربت انكلتراان تميتنا جوعاً فلا اهون علينا من ان نميت فرنسا جوعاً وذلك لانهُ مثل كل الماني كان يعتقد انه بعد مدة قصيرة سيكون الالمان الآمرين الناهين في عاصمة الفرنسويين

وفي كل احاديثه معي كان ونغنهايم يظهر بغضاً وحقداً شديدين نحو روسيا والشعب الروسي

وكان يفتخر دائماً بوجود ١٧٤ مدفعياً في الدردنيل وأن الاميرال سوشون كان يعتقد بأن حصون الدردنيل لا تقهر وأنه يتمكن من اقفال الدردنيل بمدة ثلاثين دقيقة فقط «على اننا سوف لا نقفله الا اذا هاجمته الاساطيل الانكليزية».

في ذلك الوقت كانت انكلترا قد اعلنت الحرب ولـكنها لم تكن قد دخلتّها فعلياً لأن جيشها كان صغيراً جداً بالنسبة الى جيوش بقية الدول ولم يكن ونغنهايم او غيره من الالمـان يحلمون بانه سيتسـنى لانـكلترا ان تنشيء جيشاً كبيراً كالجيش الذي انشأته

وكان قوّاد الجيش الالمـاني ينوون ان يصوبوا مدافعهم من كاله الى الشواطيء الانكليزية ولم يكن يدور في خلدهم انه لن يتمكنوا من احتـلال كاله لتحقيق حلمهم هذا



﴿ هنري مورغنتو ﴾

سفير الولايات المتحدة في الاستانة

١٩١٣ — ١٩١٦

الفصل السابع

نشر الدعوة الالمانية

لم تكن المانيا قد عزمت على ادخال تركيا وطيس الحرب في الشهور الاولى من احتدام نارها لانها كانت تعتقد انها ستتمكن من احراز نصر سريع دون مساعدتها

اما انا فكنت قد بدأت اذ اهتم بمصير تركيا فأبرقت الى العاصمة وشنطون اسألهم اذا كان ثم من اعتراض على بذل ما لدي من النفوذ لابقاء تركيا على الحياد فجاءني الجواب ان افعل ذلك ولكن بصفة غير رسمية. علمت ان عملي ذلك يسر حكومتي انكلترا وفرنسا لان سفيريهما كانا يبذلان وسعهما لابقاء تركيا على الحياد ولكنني ظننت ان عملي قد يغضب حكومة المانيا فقررت ان اسأل ونغنهايم اذا كان له من اعتراض على عملي ذاك . وما كان اشد دهشتي حينما اجاب — ليس من اعتراض مطلقاً — ان المانيا تود بقاء تركيا على الحياد

لا شك ان سياسة تركيا في ذلك الوقت كانت مطابقة لما تقتضيه المصالح الالمانية ونفوذ ونغنهايم في الوزارة التركية كان يزداد يومياً اما تردد تركيا فالقى الحلفاء في حيرة عظيمة فاضطرت انكلترا ان تبقي اسطولاً ضخماً عند مدخل الدردنيل حتى يكون جاهزاً اذا رجحت كفة الميزان مع المانيا وزادت جيش الاحتلال في الهند واضطرت روسيا ايضاً ان تبقي جيشاً في القوقاس وذلك تمام كانت ماتتطلبه السياسة الالمانية لان وطأة اعدائها خفت في باقي الساحات الحربية

حدث كل ذلك قبل معركة المارن الاولى حينما كانت المانيا تؤمل ان تسير الى نصر اكيد بدون مساعدة تركيا. لان القيصر رأى انه اذا دخلت تركيا وتمكنت جيوشه من قهر اعدائها في شمالي روسيا وغربيها لقامت تركيا تطالبه بجزء من الارباح الطائلة التي كان يؤمل ان يحصل عليها . ولذلك لم ير ان دخول تركيا لا يكون موافقق الا حينما تعجز جيوشه الجرارة عن قهر الاعداء قهراً تاماً

كان ونغنهايم اثناء هذه المدة يعد تركيا لمساعدة المانيا عند الحاجة اليها فعين الضباط العديدين لتدريب الجيش التركي — وتمكن من ادخال غوبن وبرسلو الى مياه الدردنيل وباعهما ظاهراً للحكومة التركية فقوي بهما اسطول تركيا في البحر الاسود

عرف سفراء دول الاتفاق انهم لا يتمكنون من ان يقنعوا تركيا بخوض غمار الحرب حليفة لهم ولذلك بذلوا جهدهم لابقائها على الحياد . جربوا ان يقنعوا انور وطلعت وباقي زعماء الحكومة بقولهم كفاكم من الحرب ما يضعف البلاد وينهك قوى العباد . ها قد حاربتم حربين كبيرين في مدة اربع سنوات واذا دخلتم هذه الحرب الثالثة فلا شك انكم تسيرون بالمملكة الى — الخراب والدمار

لم يكن لدى سفراء دول الاتفاق ما يقدرون ان يغروا تركيا به لتحافظ على حيادها سوى وعدهم اياها بالمحافظة على وحدتها السياسية . ولذلك لما عرضت مسألة بيع غوبن وبرسلو لم يشددوا النكير على الحكومة مع انهم رفعوا الاحتجاجات الرسمية الى ذوي السلطة

فكان الاتراك يجيبون ان المدرعتين اصبحتا تخصان الاسطول التركي فيجيبهم السرلويس مالت ـ السفير الانكليزي اذا كان ذلك صحيحاً فلماذا لا تبدلون البحارة الالمان ببحارة اتراك

فيجيبه الصدر الاعظم

— ذلك ما عقدنا النية عليه ولكن ارسلنا ماعندنا من البحارة المدربين الى انكلترا وعند رجوعهم نبدل البحارة الالمان بهم

ولكن مضى الشهر تلو الآخر ورجع البحارة الاتراك من انكلترا وبقي الاميرال سوشون حاكم البارجتين المطلق

حدث كل ذلك ولكن سفراء الحلفاء لم يطلبوا جوازات السفر لانهم علموا انهم بفعلهم هذا يكونون قد احدثوا ما يريدون تجنبه وهو دخول تركيا في الحرب حليفة لالمانيا

على ان وعود دول الاتفاق لم تجد نفعاً واتفق ان اجتمعت بطلعت آنئذ فتباحثنا ملياً فقال

الم يعدونا في حرب البلقان انهم لا يسمحون بتقسيم تركيا في اوروبا وها نتائج وعودهم ظاهرة للعيان

اما ونغنهايم فلم يكن يضرب على غير هذا الوتر قائلاً لاولي النفوذ والسلطة

— لا يمكنكم ان تركنوا الى كل ما يقولونه . الم يحنثوا بوعودهم في حرب البلقان؟ الا تعلمون لماذا يريدون ابقاءكم على الحياد ؟ ذلك لانهم يرهبون صولتكم ! الا

تشعرون انه بمساعدة المانيا اصبحتم قوة يحاذر بطشها فلا عجب اذا ارادت انكلترا ان لاتحاربكم

درس ونغنهايم فلسفة اخلاق الاتراك فعلم تماماً ان اقوى عواطفهم هي عاطفة الخوف فهم لايحبون ولا يبغضون بل يخافون ويريدون غيرهم ان يخافهم

وانا اعتقد بعد ان لاحظت مسير الامور في العاصمة انه رغماً عن ميل طلعت وانور لالمانيا كان السواد الاعظم من الشعب يميل الى دول الاتفاق

رأى السلطان مضار الحرب فكان مقاوماً للذين يريدون اصلاء نارها وولي العهد يوسف عز الدين كان يميل الى دول الاتفاق ، والصدر الاعظم كان يميل الى انكلترا اكثر من ميله الى المانيا ، وجمال باشا احد اركان الاتحاديين الاقوياء كان قد وصل حديثاً من فرنسا حيث لقي احتفاء عظيماً وكان ميله افرنسياً

وعلى هذا النمط نجد ان اكثر اعضاء الوزارة لم يستميلوا المانيا . والرأي العام لا شك كان يعتقد ان انكلترا لا المانيا صديقة تركيا القديمة

كذلك رأى ونغنهايم امامه قوة عظيمة ولكنه قاومها غير هياب

ذكرت شيئاً من قبل عما شعر به الاتراك حينما تداخلت الحكومة الانكليزية ومنعت ارسال المدرعة التركية التي كانت تبنى في انكلترا

رأى ونغنهايم في هذه الحادثة فرصة سانحة للعمل فاستأجر كتاباً ، يملأون الاعمدة الطويلة ويحبرون المقالات الضافية عن هذا الموضوع مقبحين عمل انكلترا ومنددين بسوء نيتها

وهكذا اصبحت اكثر جرائد العاصمة رويداً رويداً تتغنى بمديح المانيا وحلفائها بعد ان امدهم غليوم بالمال اجرةً لذلك العمل . اما الجرائد التي كانت ترفض الرشوة فكانت تصدر الاوامر السنية باقفالها رغماً عما ينص عليه الدستور العثماني من اطلاق حرية الصحافة

فأخذت تلك الصحف تصور انكلترا بصور العداء وتظهر روسيا بمظاهر الحقد ، واصبحت تنادي بغليوم رجلاً يدافع عن الاسلام ويحمي حقيقتهُ وانور بطلاً اعاد الى تركيا مجدها الغابر وعزها البائد

وفضلاً عن ذلك كان ونغنهايم يبذل وسعه للاستيلاء على مراكز القوة والسلطة في الحكومة فكان كل يوم يأتي بذخائر ومؤن جديدة من المانيا وضباط ومهندسين

اخصائيين في فنون الحرب الحديثة وكثيراً ما كان يقول لانور وطلعت وجمال ، ان البعثه الانكليزية البحرية برئاسة الاميرال لمبس قد خربت اسطولكم بدلا من ان تعلمه ولكن انظروا كيف اصلحنا حالة جيشكم فصار يحاذره العدو والصديق

في تلك الاثناء كان الضباط الالمان يعملون على تحصين معاقل الدردنيل لئلا يفاجئهم الانكليز بهجوم بحري قوي فلا يقوون على الدفاع

وكان في مياه الاستانة سفينة المانية تدعي «الجنرال» وكان لي صديق امريكي الجنسية يتردد كثيراً الى هذه السفينة حيث كان ضباط المدرعتين الالمانيتين يجتمعون لقتل الوقت بمعاقرة بنت الحان والتحدث بأخبار الحرب .

وكثيراً ما كان يأتي اليَّ ذلك الصديق ويخبرني عما يحدث بين اولئك الضباط وفي أواخر اكتوبر اتاني قائلا —

— لابد من دخول تركيا في الحرب — لان الاسطول التركي اصبح متأهباً والضباط الالمان اصبحوا لاطاقة لهم على الصبر دون قتال وسفك دماء

الفصل الثامن

« اقفال الدردنيل »

في السابع والعشرين من ايلول اتاني السر لويس ملت السفير الانكليزي وعلى وجهه امائر القلق والاضطراب والتهيج

وقبل وصوله بقليل كان خديوي مصر عباس الثاني في مكتبي لبعض اشغال رسمية ولذلك حينما دخل السفير الانكليزي بدأت اباحثهُ في الشؤون المصرية ولكنهُ قال

— دعنا والشوؤن المصرية الآن اذ يوجد اهم من ذلك — ألم تعلم انهم اقفلوا الدردنيل ؟

ان الضمير في فعل «اقفلوا» لم يرجع الى الحكومة التركية التي لها وحدها حق اقفالهِ بل كان عائداً الى الالمان اصحاب السلطة الفعلية فى الاستانة

ذلك كان عملاً منافياً لحقوق الحياة ولذلك جاءني السر لويس يسألني ان نرفع اعتراضاً على ذلك العمل فقلت لهُ

ليرفع كل منا اعتراضهُ لنفسهِ ونهضت للحال وذهبت الى بيت الصدر الاعظم وصلت فوجدت اعضاء الوزارة في اجتماع خاص فجلست في غرفة الانتظار وكنت اسمع لغط اعضاء الوزارة وهم يتناقشون ويتشاحنون فميزت منهم صوت انور وطلعت وجاويد

ولم يعتم ان خرج الصدر الاعظم لمقابلتي وماكان اشد تعجبي عند مارأيت علامات القلق والتهيج بادية في كل حركاتهِ وسكناتهِ

فبادرتهُ بالسؤال عما اذا كان خبر اقفال الدردنيل صحيحاً فوقف حائراً ثم تمتم قائلا

— نعم —

فقلت ان ذلك يؤدي الى اعلان الحرب ـ واعترضت رسمياً بلهجة شديدة باسم الولايات المتحدة

عند ذلك استأذن الصدر الاعظم ودخل الى غرفة الاجتماع وارسل جاويد ليباحثني في هذه المسألة

لم يكد جاويد يدخل الغرفة حتى صاح قائلاً

— ان ذلك قد حدث على غير علم منا مما يدل على ان السلطة الفعلية في ادارة شؤون المملكة لم تكن عالمة بهِ

فقلت لهُ ان حكومة الولايات المتحدة لا تسلم مطلقاً باقفال الدردنيل. فتركيا لم تزل في حالة السلم ولا حق للسلطان ان يمنع دخول المراكب التجارية اليهِ الا في حالة الحرب والآن يوجد باخرة اميركية خارج المضيق تحمل حاجات ضرورية للسفارة الاميركية

فاقترح جاويد ان تفرغ تلك الباخرة شحنها في ازمير ثم تنقل الحكومة التركية تلك البضائع من ازمير الى الاستانة على نفقتها ، فرفضت ذلك اذا علمت انهُ يحاول تخفيف لهجة اعتراضي

فقال جاويد ان الوزارة ستفحص عن المسألة ثم اخذ يسرد كيفية صدور الاوامر باقفال الدردنيل

وذلك انهُ في احد الايام خرج مركب طوربيد عثماني الى بحر ايجه فأوقفتهُ السفن الحربية الانكليزية وفتشتهُ فوجدت فيهِ بحارةً المان، فأمرتهُ بالرجوع. عند ذلك أصدر الجنرال فيبر باشا المتولي القيادة في معاقل الدردنيل باقفالهِ دون ان يعلم الوزارة

ذكرت قبلاً ان ونغنهايم كان يفتخر انهُ في امكانهم ان يقفلوا الدردنيل في مدة نصف ساعة وها قد تم ما قاله حرفياً

ولم يكد يصدر ذلك الامر حتى اطفئت المنائر وانزلت الألغام والشباك الى البحر واصبح الدردنيل في حالة حرب

حدث كل ذلك والرجال الذين لهم حق السلطة في الدردنيل يرتجفون لعمل الالمان حائرون فيما يجب ان يفعلوا والسلطان الذي لاينفذ امر ما الا بعد مصادقتهِ عليهِ كان في بيته لايعلم شيئاً عما يجرى في مملكتهِ

في سبتمبر (ايلول) تمكن الافرنسيون من قهر اعدائهم في معركة المارن الاولى ولم يدخل الالمان باريس في مدة قصيرة كما كانوا ينوون

كانت الجيوش الروسية قد احتلت لمبرغ ووصلت الى جبال الكربات ومنها كانت تنوي الهبوط الى سهول المجر

فصدر اذ ذاك امر الى ونغنهايم من مركز القيادة العامة في برلين لكي يبدأ باستعمال قوة تركيا في سبيل المانيا لان الوقت قد آن واصبحت المانيا في حاجة اليها بعد مافشلت في السير الى انتصار سريع بدون مساعدتها

جاء الوقت عند ما اضطرت المانيا لطلب مساعدة الجيش التركي الذي نظمهُ الضباط الالمان ولم يكن اقفال الدردنيل الا علامة واضحة ان تركيا دخلت الحرب في جانب المانيا

فتم بذلك ما اراده ونغنهايم

والآن ليفهم العالم ان طول مدة الحرب ناتجة عن دخول تركيا في الحرب مع المانيا واقفال الدردنيل

اذ بذلك انفصلت روسيا عن حلفائها انفصالاً ادى الى تقهقرها وانكسارها في السنة الثانية من الحرب لأننا اذا درسنا الخريطة نجد ان لروسيا اربعة منافذ الى البحر

الاول بواسطة بحر البلطيق حيث وقف الاسطول الالماني سداً منيعاً في سبيل المواصلات

والثانية هو ميناء اركنجل في المتجمد الشمالي واستعمالهُ صعب لان الجليد يبقى هناك ماينيف على سبعة اشهر

والثالثة بواسطة فلاديفستوك على الاوقيانوس الباسيفيكي وهذا كان متعذراً لبعد الشقة

والرابع هو منفذ الدردنيل

بواسطة هذا المنفذ كان يمر القسم الاكبر من صادرات روسيا ووارداتها

والآن اقفلت المانيا ذلك المضيق فوقفت تجارة روسيا وفصلت بينها وبين حلفائها فلم تتمكن من امدادها بالذخائر الحربية التي كانت ضرورية لعسكرها العرمرم الذي اصبح في السنة التالية من الحرب يحارب الالمان عرياناً وبلا مدافع او بنادق

ان اقفال الدردنيل لمن اعظم انتصارات المانيا الحربية والسياسية في هذه الحرب الكبرى

الفصل التاسع

الغاء الامتيازات

ان الامتيازات الاجنبية هي مامنحته الحكومة التركية لسائر الدول الاوربية منها على الاخص بواسطة معاهدات قديمة . وعلى هذه الامتيازات كان يتوقف معاملة الرعايا الاجانب المقيمين في تركيا

اما تركيا فمنذ نشأة قانون الدول لم تمنح المساواة التامة مع بقية الامم فتركها ذلك التقيد بتلك المعاهدات بدون سلطة مطلقة ضمن حدودها .وذلك لأن شرائع وقوانين الحكومة التركية كانت تختلف تمام الاختلاف عن شرائع وقوانين الدول الاوربية فلم تؤمن الحكومات الاوربية للحكومة العثمانية ان يكون لها حق السلطة على الاجانب المقيمين فيها فأسسوا لذلك المحاكم القنصلية واصبح كل أوربي او اميركي يحاكم امام قنصله ويسجن في سجن القنصلية اذا استحق ذلك العقاب

وفضلاً عن هذه القيود القضائية السياسية كانت تركيا مقيدة بقيود اقتصادية تجارية . ولم يكن لمديري شأنها ان يرفعوا الضرائب الجمركية اذا شعروا بضرورة رفعها . فنتج عنها وجود هذه القيود الاقتصادية (١) ان الصنائع الوطنية اخذت تضعف رويداً رويداً حتى قاربت ان تتلاشى وعرف ساسة الاتراك حالة البلاد الحرجة فرفعوا اعتراضاً قوي اللهجة على وجود هذه القيود التي تمنع سيرهم كأمة حية ولكن ذلك الاعتراض لم يجد نفعاً

---

(١) كانت الضرائب ١١ في المائة سنة ١٩١٤ وكانوا يحاولون زيادتها الى ١٤ في المائة

لذلك حينما ابتدأت الحرب كثرت الاشاعات على ان الحكومة التركية ستلغي الامتيازات الاجنبية لان المانيا كانت قد سلمت بذلك لكي تستميل تركيا. وانكلترا قبلت بهِ لتغر تركيا بالبقاء على الحياد. على انهُ لم يكن لهذه الاشاعات من اصل ثابت مطلقاً انما من اظرف مالاحظته عند شيوع هذا الخبر ماطرأ على الرعايا الاجانب من الخوف والقلق لما ظنوا انهم اصبحوا تحت سلطة محاكم الاتراك

ذهبت في احد الايام لازور انور باشا في قصره بعد دعوة خصوصية منهُ وكان اذ ذاك يشعر بألم في رجله اثر عملية جراحية وكان بيته في حي من اجمل احياء المدينة حيث يقل الازدحام وتكثر السكينة والهدو

قرعت الباب ففتحه الحارس وسلمني الى حاجب اخر فاخذني هذا من غرفة الى اخرى حتى وصلت الى غرفة انور الخاصة. كل ما رأيتهُ في داخل البيت يدل على ثروة عظمية وجاه واسع. فالقصر مفروش بالطنافس الثمينة والرياش النفيسة. والاواني الغالية الاثمان منها كرسي مذهب ورثته زوجته عن والديها لانها كانت من العائلة المالكة

لم اقدر ان املك افكاري حينما رأيت مظاهر الثروة والجاه في بيت انور ولم اتمالك عن التساءل عن مصدر تلك الثروة الكبيرة ،

لم يكن انور الا رجلاً ثورياً من اصل وضيع وراتبه كناظر الحربية لم يزد على ٨٠٠٠ ريال ، وزوجته لم تكن ذات بائنة عظيمة فما هو مصدر ذلك الغنى الطائل ؟

كان قصد انور من تلك الدعوة البحث في مسألة الامتيازات الاجنبية فقال —

ان الوزارة قد قررت ان تلغي الامتيازات الاجنبية ولكنها تود ان تعلم ماهو الموقف الذي تتخذه الولايات المتحدة ازاء ذلك العمل

ان الولايات المتحدة ساعدت اليابان على تحرير نفسها من ربقة الذل والاستعباد فلم لا تساعدنا على ذلك وكلانا في درجة واحدة من التمدن والرقي ؟

فأجبت —

ان حكومة الولايات المتحدة قد تسلم بالغاء القيود الاقتصادية — لأن ذلك كان اعتقادي الشخصي — ولكن طالما محاكمكم لاتزال في حالة سيئة فالولايات المتحدة لا تسلم مطلقاً بذلك. فالواجب يقضي على الاتراك اذاً ان يبدأوا بحركة

اصلاحية في محاكمهم القضائية وسجونهم قبل ان ينتظروا من حكومة الولايات المتحدة اقل مساعدة

فاقترح انور عندئذ ان تؤلف محاكم مختلطة فيحق للولايات المتحدة عند ذلك ان تعين احد القضاة

فرفضت ذلك لان قضاة الولايات المتحدة لا يعرفون اللغة التركية ولا القوانين والشرائع التركية وذلك يودي الى صعوبات فنية جمة

بعد ذلك بمدة انتشر خبر الغاء الامتيازات . فرفع السفراء الاعتراضات العديدة ولكن رغماً عن ذلك صدر امر الحكومة بالغائها من اول اكتوبر ١٩١٤. وذلك تمام ما كانت ترمي اليه حركة جمعية الاتحاد والترقي -- من ابقاء تركيا للاتراك

اما موقف انكلترا فقد كان موافقاً لموقف الولايات المتحدة ونظارة الخارجية في برلين عنفت سفيرها في الاستانة لتسليمه بذلك الالغاء

وما كان اشد قلق واضطراب الرعايا الاجانب عند صدور ذلك الامر . لان مضايق الدردنيل كانت قد اقفلت وأصبحوا تحت رحمة قضاة الاتراك وسجونهم مع ما عرف عنها من سوء التنظيم وخلل الادارة

ذهبت عند ذلك الى مكتب انور وسألته عن موقف الحكومة التركية نحو المعاهد الاميركية فأكد لي ان الحكومة التركية لا تنظر الى الاميركيين كأعداء . فقلت له انه يحسن به والحالة هذه ان يظهر علنياً ان الاميركيين لن ينالوا بسوء فقال ما هي الطريقة الى ذلك ؟

فاقترحت عليه ان يزور كلية روبرت الواقعة على ضفاف البوسفور في اول اكتوبر -- اليوم المعين لالغاء الامتيازات --

كان ذلك الاقتراح وحيداً في بابه لانه منذ تأسيس تلك الكلية على ضفاف البوسفور لم يزرها احد من الحكومة التركية زيارة رسمية ولكن علمت ان البلاد ستتناقل خبر زيارة انور لكلية روبرت فيشعر الجميع ان جميع المعاهد الاميركية في تركيا قد اصبحت في حمايته ويكون لهذه الاخبار تأثير عظيم في سبيل المحافظة على مصالح الاميركيين في كل انحاء المملكة

فصادف هذا الاقتراح قبولاً حسناً وللحال عمل به .وفي اليوم المعين اتى

انور الى السفارة الاميركية وبصحبته سيارتان فركبت واياه في احداها وفي الاخرى بعض اعوانه

اخذت احدثه في الطريق عن غاية المعاهد الاميركية وعمالها في تركيا لانه لم يكن يعلم شيئاً عن حقيقة ذلك وكان يعتقد انها هناك لاسباب سياسية محضة ثم قلت

—نحن الاميركيين لا نبحث عن ربح مادي في تركيا ولكن جل ما نطلبه هو ان تعاملوا اولادنا — هذه المعاهد— بالرفق

ثم اخذت اخبره عما ينفقه الاميركيون سنوياً من الاموال الطائلة لتأسيس مدارس كهذه في كل مكان . فسألني قائلاً

ولكن من اين لهم هذه المبالغ الباهظة التي ينفقونها في سبيل العلم والتهذيب

فسردت له عندئذ تاريخ فندربلت وروكفلر ، ودودج وسايج وغيرهم وكيف جمعوا تلك الثروات الطائلة بعد ان كانوا في بدء حياتهم لا يملكون شروى نقير فسر انور بتلك القصص وحسبها اعجب من حكايات الف ليلة وليلة وعلمت بعدئذ انهُ سردها لكل ذوي المقامات السامية في الاستانة

اعجب انور كثيراً بكلية روبرت حتى انهُ تفقد بشخصهِ كل البنايات وكان يظهر ارتياحه لكل ما يراه فيها. تناول الشاي مع رئيس المدرسة الدكتور غايتس وزوجته — ولفيف من الاساتذة وشرع يباحثهم عن لائحة دروس المدرسة وهل كانوا ينوون ادخال فن الزراعة في برنامج الدروس وقال لي بعدئذ

— كنت انتظر ان اجد هؤلاء المرسلين كما كانت تصورهم لنا الجرائد والصحف الالمانية — رجالاً ذوي لحى طويلة لا عمل لهم غير التضرع والصلاة — ولكن ها الدكتور كايتس وبعض الاساتذة يتكلمون التركية كأربابها. اني اشكر لك جداً اهتمامك بالاتيان لي الى هنا

حتى الآن كنت اسعى لابقاء تركيا على الحياد وكان ونغنهايم مرتاحاً الى عملي هذا . ولكن لم تطل المدة حتى شعرت المانيا بشدة احتياجها لمساعدة تركيا بعد انكسار جيوشها في معركة المارن الاولى فأخذ ونغنهايم اذ ذاك ينظر الى عملي بعين الغضب وبذل كل جهده لكي يقنعني بالتوقف عن حض انور وطلعت على البقاء على الحياد

اجتمعت بهِ يوماً فقال

— كنت احسب انك تمثل دولة لا تزال على الحياد . فأجبت — كنت اظنك في تركيا حيث حقوقك وحقوق غيرك سيان

ولكن ونغنهايم كان قد شعر باضطرار المانيا لمساعدة تركيا فأخذ ينتظر فرصة سانحة لـكي يزج تركيا في حامي وطيس الحرب الـكبرى

ولـكن كما بينت قبلاً كان لا يزال في تركيـا قسم كبير غير ميال لموالاة المانيا. منهم عدد كبير كان بين اعضاء الوزارة كسعيد حليم باشا الصدر الاعظم ، وناظر المالية جاويد بك ، وناظر النافعة محمود باشا ، وناظر الزراعة والتجارة سليمان افندي البستاني. وناظر البوستة اسخان افندي.كل هؤلاء كانوا مقاومين للحرب وانذروا طلعت وأنور بانهم يستقيلون اذا خاضت تركيا غمارها

كانت الحالة حرجة جداً في ذلك الوقت في الاستانة واثباتاً لذلك اروي الحادثة التالية

كنت قد دعوت السفير الانكليزي لمناولة طعام الغداء في السفارة الاميركية في العشرين من شهر اكتوبر ، ولـكن قبل الموعد ببضع دقائق ارسل معتذراً عن عدم تمكنهِ من الحضور لانحراف في صحتهِ

وما كان اشد تعجبي حينما ذهبت لعيادة السفير بعد الظهر فوجدته في الحديقة وليس عليهِ دلائل ألم او مرض، فسألته عن سبب تخلفهِ عن المجيء فقال —

— وصلني رسالة سرية كلها وعيد وتهديد — وفيها يقولون انهم ينوون اغتيالي في محل مخصوص — فرأيت من الحزم ان ابقى في بيتي لنرى ماذا يكون

فعرضت عليه حينئذ حماية سفارتي وأعطيته مفتاح حديقة السفارة الاميركية الخلفي — لانه كان يتمكن من الذهاب من حديقته الى حديقتي دون ان يمر في الطريق العمومي. عند ذلك نظر الي وقال

يظهر لي ان هؤلاء قد عادوا الى عاداتهم في القرون المتوحشة وحينما كانوا يزجون السفراء والمندوبين في سجون مظلمة رطبة فاسدة الهواء

فتركته اذ ذاك وذهبت تواً الى الصدر الاعظم وأطلعته على الحادثة واقترحت عليه ان يذهب بنفسه او يرسل طلعت ناظر الداخلية ليؤكد للسفير البريطاني انه لا يزال في امان — وقدذهب طلعت الى السفارة الانكليزية معتذراً

الفصل العاشر

دخول تركيا في الحرب

في تلك الاثناء كان ممثلو المانيا في تركيا يبذلون جهدهم ليأتوا بعمل ما تكون نتيجته سبباً ظاهراً يدفع تركيا لاعلان الحرب

كان الاميرال سوشون يرسل غوبن وبرسلو الى البحر الاسود للمناورات البحرية لعله بذلك يدفع البوارج الروسية للهجوم عليها فيتخذ السفير الالماني ذلك العمل العدائي سبباً لادخال تركيا في الحرب ضد روسيا

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول (نوفمبر) دخل بعض عرب البادية حدود مصر فردتهم العساكر الانكليزية على اعقابهم

فذهبت اذ ذاك الى طلعت وتباحثنا ملياً في ذلك الموضوع لاني كنت الرجل المسؤول عن المصالح البريطانية وكان السر لويس ملت قد كتب الي ما يأتي —

ان ذلك يؤدي لاشهار الحرب — ارجو ان تذكر ذلك امام طلعت وتفهمه نتائج ذلك العمل

فقال طلعت حينما اخبرته بذلك ان العرب كانوا يحفرون آبار ماء لكي يستعملوها اذا وقعت الحرب بين انكلترا وتركيا فهاجمتهم الجنود الانكليزية وخربت تلك الآبار فرد العربان الهجوم ليمنعوا تعدي الانكليز . وكان قد قال قبلاً للسر لويس ملت ان الحكومة التركية لا تعترف بوجود حدود مصرية لانهم يحسبون مصر جزءاً من تركيا

في نفس هذا الاجتماع اخبرني طلعت ان الحكومة التركية كانت قد قررت نهائياً ان تدخل الحرب حليفة لالمانيا وأخذ يحلل البراهين التي تدفعهم الى ذلك العمل الى ان قال

لا بد لالمانيا من الانتصار . وعندئذ ينتقم الامبراطور لنفسه من تركيا اذا لم تمد له يد المساعدة . ان سياسة الدول والممالك يجب ان تتمشى في سيرها على طريق المصلحة المجردة . ومصلحتنا تقضي ان نساعد المانيا واذا قضت مصالحنا بعد شهر واحد ان نفصم عرى الاتفاق مع المانيا ونخطب ود انكلترا وفرنسا فسنفعل

ذلك . ان روسيا عدونا اللدود فاذا ساعدنا المانيا الآن على كسر شوكتها نخلص من خطر عظيم هدد كياننا قروناً طويلة

في مساء ذلك النهار وردت الانباء ان قاربي طوربيد من الاسطول التركي هجما على مدينة اودسا الروسية وأغرقا الغمبوط ردنتز وعطلا دارعتين ثم صوبا مدافعهما نحو المدينة فهدمت القنابل معمل سكر فيها وأن البحارة في ذينك القاربين كانوا المانا لان البحارة الاتراك في ذلك النهار كانوا قد نالوا فرصة بمناسبة عيد — بيرام —

ذكرت قبلاً انه كان لي صديق يتردد على السفينة الالمانية حيث كان يجتمع فيها الضباط الالمان وكان يأتي الي ويخبرني ماذا كانوا ينوون ان يفعلوا . وقد قال لي مرات عديدة ان الضباط الالمان قد سئموا تلك الحالة ولا بد لهم من القيام بعمل عدائي مهما كان ليجبروا تركيا على دخول الحرب والآن نفذ ما كانوا يضمرون

حينما وصلت الاخبار الى العاصمة كان جمال باشا ناظر البحرية يقامر في « سرك الشرق » وما كان اشد تعجبه لما سمع تلك الاخبار وما لبث ان صاح : —

— لا اعلم عنها شيئاً — لم يحدث ذلك بأمر مني

في مساء ذلك اليوم اجتمعت بطلعت فأخبرني ان الاميرال سوشون كان قد اصدر تلك الاوامر ولا شك عندي ان طلعت وجمال كانا ينتظران وقوع هذا الحادث . وبلغ التأثر من سعيد حليم باشا الصدر الاعظم لذلك الحادث حتى ان عينيه اغرورقتا بالدموع حينما اتاه السر لويس ملت السفير الانكليزي والمسيو بومبار السفير الافرنسي طالبين جوازات السفر فسألهما ان يصبرا قليلاً لانه كان يعمل على حل المسألة حلاً مرضياً للفريقين

اما طلعت وأنور فكانا يودان من صميم فؤادهما ان يبقيا سعيد حليم باشا في منصب الصدارة لكي يساعدهما باسمه الشريف وماله الكثير ولذلك كثيراً ما كان طلعت يأتي اعمالاً لا تنطبق على خطته ليتظاهر انه يفعل حسب ارادة الصدر الاعظم ليغره بالبقاء في ذلك المنصب

ولذلك اتاني طلعت وطلب مني باسم الصدر الاعظم ان اتداخل مع السفير الروسي وأسأله عن التعويضات التي تطلبها روسيا لقاء اعتداء تركيا عليها . علمت العوامل التي تدفعه الى ذلك فقلت له

— لماذا تتظاهر انك رسول الصدر الاعظم — الا اخلع عنك ذلك وكلمني كطلعت ناظر الداخلية

فضحك طلعت وقال —

— لأني « ونغنهايم وأنور وخوض غمار الحرب الآن — وما كادت تعلن الحرب حتى نفذ بستاني وأسخان ومحمود وجاويد تهديداتهم وقدموا استعفائهم تاركين الحكومة في ايدي الاتراك

اما سعيد حليم باشا الذي كان قد عزم ان يستقيل فدفعه حبه للفخر والابهة والعظمة ان يبقى مستلماً زمام اعظم منصب في الحكومة التركية . فاذاً والحالة هذه لم تكن نتيجة دخول تركيا في الحرب الا توحيد السلطة في المملكة العثمانية في ايدي رجال الاتحاد والترقي — والثورة التي كانت ترمي الى جعل تركيا دولة دستورية انتهت الآن بجعل حكومة تركيا حكومة مطلقة — رائدها الظلم والاستبداد وغاية افرادها الاولى النفوذ والسلطة والكسب

***

في مساء الثلاثين من شهر تشرين الاول ذهبت الى السفارة الانكليزية لاهتم بامر الرعايا الانكليز الذين كانوا قد ملأوها لخوفهم ورعبهم من سوء المعاملة

دخلت الى مكتب السفير فوجدتهُ جالساً بكل هدوء وسكينة امام الموقد وامامه كومة من الاوراق ضمنها خلاصة اعمال انكلترا السياسية في تركيا منذ حرب القريم رأيته يأخذ الورقة تلو الاخرى ويقرأها ثم يرمي بها الى النار المشبوبة فتلتهمها .

هنالك اعطاني قائمة اسماء الرعايا البريطانيين المسافرين والباقين واتفقنا نهائياً على استلام ادارة الشؤون الانكليزية في الاستانة

نعم نفوذ بريطانيا في تركيا كان قد سقط بعد ان تغلب عليه النفوذ الالماني ولكن ذكر السفير البريطاني لم يزل عاطراً كالمسك لانه لم يكن قد رشا مأموري الاتراك بالنقود ولا تسلط على الصحافة التركية بالاصفر الرنان ولا داس القوانين الدولية واستحسن كل واسطة توصلاً الى غاية كما فعل السفير الالماني الذي اتبع قول بسمارك الالماني الحقيقي يجب ان لا يضن بحياته وشرفه في سبيل الوطن

الفصل الحادى عشر

الاجانب في تركيا

بعد الهجوم على مرفأ اودسا اجتمعت بانور واخذنا نبحث في مسألة معاملة الرعايا الاجانب المقيمين في تركيا

هل كانت الحكومة التركية عازمة ان تنفيهم الى داخلية اسيا الصغرى ام كانت لتتركهم في محال اقامتهم وتعاملهم بالرفق ام كانت تريدان تعود الى العادات القديمة فتسومهم شر العذاب وتذيقهم الامرين ؟

كثيرون من اولئك الرعايا كانوا قد ولدوا في تركيا وقضوا الشطر الاكبر من حياتهم فيها وحينما اعلنت الحرب والغيت الامتيازات واقفل الدردنيل باتوا ينتظرون من الاتراك ما حملته اليهم كتب التاريخ عن معاملة الاتراك الرديئة وتعذيبهم الاليم

على اني جربت جهدي ان اقنع الحكومة التركية بان تعاملهم بالرفق والتؤدة وعلى الاخص بعد ان اصبحت مسؤولاً عن شؤون الانكليز والافرنسيين بعد قطع العلاقات

علمت منذ البدء ان واجبي صعب للغاية لان الالمان كانوا دائماً يغرون الاتراك على استعمال الوسائل الوحشية في معاملة الاجانب والاتراك شعبٌ مفطور على تلك المعاملة القاسية ولكني كنت متسلحاً بادلة قوية وفي زيارتي لانور في ذلك النهار بسطت لديه اكثرها واستفهمت منه عما تنويه الحكومة

تركيا — كما ذكرت قبلاً — كانت تريد مصادقة الولايات المتحدة لانها كانت ترجو ان تنال منها مساعدة مالية بعد انتهاء الحرب . في ذلك الوقت كان العالم بامره يعتقد ان الولايات المتحدة وحدها تتمكن من انهاء الحرب وعقد الصلح فبينت لانور عندئذ انه اذا ارادت الحكومة التركية ان تجعل الولايات المتحدة في عداد اصدقائها المخلصين فليحسنوا معاملة الاجانب . ومن جملة ما قلت له

— تنتظرون الوقت حينما تساويكم بقية الامم بانفسها ولكن يجب ان تذكروا ان

ان العالم المتمدن يراقب حركاتكم وسكناتكم وأن مستقبلكم سيتوقف على حسن سلوككم ابان هذه الحرب

وكان انور ورفاقه يعلمون تمام العلم ان متمدنة الارض لم تكن تعتبرهم حكومة راقية متمدنة فكان لهذه الحجة وقعها

ثم ابنت لانور انه قد سنح لهم فرصة ليظهروا للعالم انهم يستحقون مركزاً سامياً في مصاف الامم الراقية

— ان العالم لايزال يعتقد انكم لاتزالون في طور الهمجية فبرهنوا له بحسن معاملتكم للأجانب انه في خطأ فادح هذه هي الطريقة التي تقدرون بواسطتها ان تحرروا انفسكم من تسلط اوربا وامتيازات دولها العديدة — لتدل اعمالكم على انكم شعب راق — لتكن اعمالكم عصرية

كان استعمالي لكلمة « عصرية » في غير محله بسبب الفظائع العديدة التي كانت تحدث يومياً في البلجيك . رأى انور ذلك فقال

عصرية؟_ كلا ! نعم ان تركيا ستحارب ولكنها لاتريد ان تكون في حربها هذه « عصرية »لأن الاعمال العصرية اكثر همجية واشد هولاً من غيرها . ان تركيا ستبذل ما في وسعها لتكون اعمالها مطابقة لشرائع الانسانية ليس الا

حسبت كلام انور وعداً صريحاً ولكن كنت قد اختبرت اخلاق الحكام وعلمت ماطبعوا عليه من التغير الفجائي وعلى الاخص لأن الالمان اصبحوا يدفعونهم لابقاء الاجانب رهائن حربية حتى يقتصون منهم متى هاجمهم اساطيل الحلفاء كما فعل الالمان في بلجيكا

علمت كل ذلك وان الالمان سيمانعون في السماح للاجانب بمغادرة تركيا فقلت لنفسي ان هذه المعركة تظهر الغالب والمغلوب فاذا نجحت بتحصيل اذن لكل من يريد مغادرة تركيا من الاجانب المقيمين فيها اكون ظهرت بمظهر القوة مع جميع ماموري الاتراك فلا يعترضونني فيما بعد

وفي اليوم الذي تلى انقطاع العلاقات بين تركيا والحلفاء ذهبت الى المحطة الكبرى لاني كنت قد اتفقت مع ذوي السلطة من الاتراك على اعداد قطارين الاول لينقل الرعايا المغادرين الساعة السابعة والثاني لينقل السفراء وعائلاتهم

واتباعهم الساعة التاسعة ولكن لشدة دهشتي رأيت في المحطة جمهوراً غفيراً من النساء والاولاد والجنود وليس من قطار حاضر للسفر

بين اولئك الجنود كان بدري بك مدير بوليس العاصمة واحد اعوان طلعت الذي كان يعتمدهم في مهامه الكبرى

كان بدري شاباً قد درس المحاماة وانتظم في سلك اعضاء جمعية الاتحاد والترقي واصبح من ذوي النفوذ والسلطة وصار يطمح للحصول على منصب في الوزارة اشتهر باحتقاره للاجانب وبغضه اياهم ولذلك كان كثيراً مايعترضني في المسائل التي كنت اود قضاءها لأجل راحة الرياعا الانكليز والفرنسيين حتى اصبح النزاع بيننا شخصياً بين بدري بك والسفارة الاميركية

فحينما رأيت المحطة تموج بالرجال والنساء والاطفال ذهبت تواً الى بدرى بك وسألته

— ماهو سبب ذلك كله ؟ فأجاب

— اننا قد غيرنا عزمنا وسنسمح لقطار واحد ينقل السفراء واتباعهم فقط اما باقي الرعايا فيجب ان يبقوا هنا

كنت قد قاسيت اشد المصاعب للحصول على الاذن الاول ولكن ظهر لي الآن ان بعض ذوي المقام تداخلوا مع ذوي السلطة من الاتراك فهدموا كل مابنيت وذلك التغيير جعل الموقف حرجاً للغاية لان السفراء لم يشاؤا ان يغادروا تركيا قبل ان يساعدوا رعاياهم على تركها ايضاً

فذهبت حالاً الى انور وتعجبت جداً اذ رأيته موالياً لآراء بدري ومن جملة ماقاله لى اذ ذاك مايأتي

— ان لتركيا عدداً كبيراً من الرعايا في مصر مثلاً . وقبل ان نسمح للاجانب بمغادرة تركيا يجب ان نعطى الضمانات الكافية بان الحكومة البريطانية لا تمس حقوقهم مطلقاً

لم يكن ذلك الطلب بالامر الصعب فذهبت حالا الى السرلويس السفير الانكليزي واخذت منه الضمانات الضرورية ولكن بدري اصر على عدم السماح للقطار بالذهاب لخوفه — كما قال من حدوث اصطدام ولم يسمح حتى لقطار السفراء بالمسير الا بعد ان عرّفت عن كل واحد من اتباعهم

كانت المحطة اذ ذاك فى هرج ومرج — هذا يصادم هذا وذاك يتخاصم ويتشاجر

مع الآخر ، هذه قبعة تقع الى الارض وهناك امرأة على وجهها علامات الاسف والحزن تحمل على صدرها طفلاً رضيعاً او يمشي وراءها صبية يعولون

وقفت وقد كاد صبري ان ينضب — اعرّف عن المسافرين واذا بالسر لويس قد انتفض فجأة ورفض الذهاب وقال — اني سأبقى هنا حتى يغادر كل انكليزي تركيا

فقلت له لا تنس ان ادارة شؤون البريطانيين قد اصبحت في يدي واني لا اتمكن من القيام بواجباتي اذا انت بقيت في الاستانة — ان الاتراك لا يعترفون بي مسؤولا عن مصالح البريطانيين اذا بقيت انت هنا فيعرقلون مساعي

ثم اقترحت عليهِ ان يسبقهم الى دده اغاج وينتظرهم فيها فعمل حسب اقتراحي وحينما صفرت القاطرة وتحركت العجلات رميت آخر نظرة على غرفة السفير فرأيته جالساً محاطاً بالصناديق والامتعة العديدة وعلامات القلق على محياه اما باقي الرعايا الاجانب فانتظروا في المحطة نحواً من ساعتين لعلهم يفوزون بالحصول على الاذن بالسفر ولـكن دون جدوى لان بدري كان مصمماً على ابقائهم . كانوا في حالة يرثى لها لانهم قد تركوا بيوتهم في الاستانة وجمعوا كل امتعتهم في الصناديق فوجدوا انفسهم الآن بدون مأوى يلجأون اليهِ اذا خيم الغسق ولم يسافروا

نام البعض — تلك الليلة في الفنادق والبعض في بيوت اصدقائهم

اما انا فلم اتمكن من ان افهم حقيقة الواقع . في الكفة الواحدة كان قد وعدني انور وطلعت انهم سيجارون الامم المتمدنة في معاملتهم للاجانب وفي الكفة الاخرى كان بدري يأمر بابقائهم . ولـكن لاشك في ان ذلك العمل لم يكن من بنات فكر بدري وكنت اعتقد أيضاً ان كل اعضاء الحكومة كانوا في نزاع شديد لا يعلمون ماذا يجب عليهم ان يفعلوا

ومما زاد الطين بلة هو عمل القواد الالمان الذين كانوا يقولون للأتراك — انكم بالسماح لهؤلاء الاجانب بمغادرة تركيا تظهرون لطفاً وليناً زائدين

اخيراً وفقت للاتفاق مع ذوي السلطة على السماح لهم بالذهاب في صباح اليوم الثاني

قضى بدري ذلك النهار في سفارتي يفحص جوازات السفر وفي الوقت المعين من صباح اليوم التالي ترك اولئك المساكين تركيا وامائر الفرح والبشر بادية في محيا كل منهم وحينما وصلوا الى دده اغاج التقوا باعضاء السفارتين

ولكن بقي في الاستانة عدد كبير من الاجانب الذين كانوا يودون مغادرتها فذهبت في صباح اليوم التالي الى طلعت بشأنهم فوجدته وعلامات السرور في محياه فتوسمت خيراً:— قال لي في تلك المقابلة

—ان الوزارة تناقشت في موضوع الرعايا الاجانب المقيمين في انحاء المملكة والبراهين التي بسطتها لانور وقعت لديهم وقعاً حسناً جداً فقرروا ان يخيروا الاجانب في البقاء او عدمه وانا سنتركهم في اعمالهم دون ادنى معارضة اذا حافظوا على السكينة والنظام—اننا نريد ان نظهر بهذه المعاملة اننا لسنا بقوم متوحشين

وطلب مني اذ ذاك ان اعمل على مدح تركيا في الصحف الاوروبية والاميركية لقاء عملها هذا

وحالما رجعت الى سفارتي دعوت عدداً من مراسلي الجرائد الاوروبية ومدحت على مسمعهم الخطة التي قررت تركيا ن تسير عليها في معاملة الاجانب وابرقت ذلك الى واشنطون وباريس ولندن والى جميع القناصل الاميركية في انحاء المعمور

ولكن لسوء الحظ لم اكد اتم ذلك حتى وردتني انباء سيئة وذلك اني كنت قد اتفقت مع ذوى السلطة بان يسمحوا لقطار خاص ينقل عدداً من الاجانب الى دده اغاج . وفي تلك الدقيقة علمت ان المأمورين الاتراك تمنعوا عن المصادقة على جوازات السفر فذهبت الى المحطة وهنالك وجدت جمهوراً غفيراً من النساء والاطفال وبعض الرجال وعدد من الجنود الاتراك يضربون من يعصي اوامرهم ببنادقهم فدهشت لهذه المعاملة الرديئة وسألت بدرى عن السبب الذي أدى الى منع القطار عن السفر فقال انه يوجد عدد كبير من المسافرين الذين لم يدفعوا ما عليهم من الضرائب . فقلت له اني أكون مسؤولاً عن كل ذلك . فضحك اذ ذاك وقال

— الا يمكنني ان اتغلب عليك مطلقاً ؟

فظننت ان جوابي ارجع المياه الى مجاريها وان القطار سيسافر في الساعة المعينة ولكن جاء عندئذ أمر شديد بتوقيفه . فغضبت عند ما علمت بذلك الامر غضباً شديداً وصعدت الى سيارتي وقصدت الباب العالى لأرى طلعت الذي كان قد وعدني وعداً صريحاً بأنهم سيعاملون الاجانب بمعاملة حسنة

وصلت الى الباب العالى فلم اجده هناك . فقصدته الى بيته — وكانت تلك المرة الاولى الذي زرته فيها هناك على غير سابق اتفاق بيننا — تعجبت عند ما قابلت

بين مسكنه وقصرانور — الاول يعيش في بيت بسيط والثاني يحيا حياة البذخ والاسراف كأنه احد الامراء

رأيت في قاعة الانتظار طاولة صغيرة وعليها آلة تلغراف صغيرة هي الآلة التي كان يستعملها طلعت فيما مضى لتحصيل مايقتات به . انتظرته بضع دقائق واذا به قد دخل لابساً ثياب البيت البسيطة وجلس الى جانبي يعتذر كأنه شعر بالضرورة الماسة التي دفعتني الى زيارته في بيته واقلاق راحته العائلية

عند ذلك نظرت اليهِ وقلت بكلام صريح

ألا تعلم ياطلعت نتائج اعمالكم هذه . منذ ساعتين او ثلاث فقط صرحت لي بانكم قدقررتم ان تعاملوا الاجانب بما تقضي به قوانين الانسانية المجردة العادلة وطلبت الي ان انشر خبر ذلك القرار في الصحف الاوروبية والاميركية . وللحال بعد ان تركتك فعلت ماطلبته مني والعالم باسره في صباح الغد سيقرأ ما عزمتم عليهِ. والآن كانكم باعمالكم هذه تقاومون ما ابذله من الجهد في سبيل تعزيز شأنكم.هل حنثتم بوعدكم الاول ام انتم عليهِ مقيمون ؟ هل تريدون ان تثبتوا على عهودكم ام تودون ان تبقوا كريشة في مهب الريح ؟ ان المبادىء الاميركية تقضي علينا ان نقوم بالوعد ولو ادى ذلك الى خسارة حياتنا . نفعل ذلك افراداً ومجموعاً ونحتقر كل من يفعل عكس ذلك ونفضل ان نتركه وشأنهُ. والآن ليكن معلوماً لديك انه لايمكننا ان نتعامل معاً ما لم اتمكن من الاعتماد على وعودكم

فقال — ليس الذنب ذنبي بل ذلك هو عمل الالمان . لقد رجع الآن رئيس اركان الحرب فغضب جداً حينما علم اننا سمحنا لهم بالذهاب وهو يريد ان نبقيهم رهائن حرب عندنا وانه يجب ان لا نتساهل بهذا المقدار

كان ذلك تمام ماكنت اعتقد.وعد طلعت فجاء برونسار رئيس اركان الحرب وحال دون اتمام الوعد . فنظرت عند ذلك الى طلعت وقلت — طلعت لابد لكم من مساعد خبير تستشيرونه في علاقاتكم مع الاجانب .والآن يجب ان تقرر ما اذا كنت تريدني — انا — ام رئيس اركان الحرب الالماني.الا تعتقد انك تخطىء بجعل كل شؤونكم في يد الالمان ، فلا بد من مجيء اليوم تطلبني ان اساعدك عليهم

— ماذا تعني بعبارتك هذه

— فقلت ان الالمان سيطلبون اليكم ان تفعلوا اشياء كثيرة لاترون عملها مناسباً

فاذا قلتم لهم ان السفير الاميركي يعترض على ذلك قد تنجحون في مقاومتكم اياهم. ولاشك انكم تعلمون ان الكل ينتظرون عقد السلم بعد اشهر قليلة ولا ريب في ان الالمان لايهتمون بتركيا مقدار ذرة . ولكن يوجد حكومة واحدة بامكانها ان تكون صديقتكم المخلصة — وهي الولايات المتحدة الاميركية

فأثر فيهِ هذا الدليل الساطع . وكنت قد علمت انه يوجد نفور شخصي بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية وكنت متأكداً من ان طلعت لايقبل ان يضحي بشيء من سلطته في سبيل تعزيز الجيش وزعمائهِ فقلت — فاذا تركت الالمان يفعلون مايريدون اليوم تصبح غداً في قبضتهم . انت اليوم صاحب السلطة المطلقة في المملكة فهل تريد ان تسمح للسلطة العسكرية المجسمة بانور والالمان ان يتسلطوا عليك ؟ فاذا خضعت لهم اليوم تجد انهم من الآن فصاعداً سيديرون الشؤون حسب مشتهاهم

كنت اتكلم واراقب وجه طلعت لأري تأثير كلامي فيهِ . بقي ساكتا بعد ان انتهيت كأنه يتأمل بما قلته ثم قال بتأن وهدوء ـ اني سأساعدك !

ثم ادار وجههُ نحو الطاولة حيث كانت آلتهُ التلغرافية وبدأ ينقر بأصابعه على مفاتيحها ثم نظر اليَّ وقال ـ ان مدير المحطة يريد اوامر انور الخطية لان الرسائل التلغرافية قابلة التزوير

مضى عليهِ مدة قبل ان تمكن من ان يعرف، مركز انور وحينما وجده اخذ واياه بالمشاحنة

في تلك الدقيقة وردت رسالة برقية كادت تقضي على نجاحي قضاء مبرما وذلك ان طلعت علم ان الانكليز قد اطلقوا قنابلهم على حصون الدردنيل فقتل رجلان من الترك فعلق طلعت عليها قائلا ونحن سنقتل ثلاثة نصارى مقابل كل مسلم فشعرت حينئذ اني قد فشلت في كل مساعي ولكن بدأت ببسط البراهين المعهودة ثانية ووجدتهُ بين عاملين قويين عامل الثار من الانكليز والثاني اظهار قوتهِ واثبات سلطته في ادارة شؤون تركيا . ولحسن الحظ تغلب الثاني

بقيت هنالك نحواً من ساعتين هو يعمل على آلة التلغراف ومن آن الى آخر يطلعني على قرار اتهم السياسة الاخيرة . كيف استقال جاويد وكيف وعد انه سيعمل لهم في بيتهِ — وكيف عزم سعيد حليم باشا ان لايستقيل وكيف انهم

عزموا على عدم معارضة الاجانب في جميع انحاء المملكة — وكنت اشم من خلال اقواله رائحة عدم موالاته للالمان الذين كانوا حجر عثرة في سبيل نفوذه الكلي — اخيراً اتفقنا على موعد سفر القطار فتركته وذهبت الى المحطة حيث وجدت ذلك الجمع الغفير ينتظر بفارغ صبر. وحينما اخبرتهم انهُ سمح لهم بالسفر بانت عنهم الاتراح والاحزان

على ان ماصرح بهِ طلعت من ان الالمان اوقفوا القطار المعين ومنعوه من نقل الاجانب دفعني الى الفحص عن واقعة الحال فذهبت الى ونغنهايم السفير الالماني وقلت — ان الحكومة التركية تبذل وسعها لتكون حكومة راقية ورجالها وعدوني بانهم سيعاملون الاجانب بكل رفق ! والالمان وفي طليعتهم رئيس اركان الحرب كانوا دائماً يحولون بين الاتراك ووعودهم

كانت الحكومة الالمانية تنظر الى الرئيس ولسن كالرجل الوحيد القادر ان يتداخل مع الدول المتحاربة في سبيل السلم . ولذلك برهنت لونغنهايم : انه اذا استمر الالمان على تلك الاعمال تستاء الحكومة الاميركية من اعمالهم تلك وربما آثر ذلك في علاقات الولايات المتحدة بالصلح المقبل . فاعرب عن ارادته في مساعدتي ولكن طلب الي ان اقنع حكومة الولايات المتحدة ان تجعل التجارة مع المانيا حرة لان المانيا في مسيس الحاجة للمواد الاولية لمعاملها الحربية والصناعية ولكن رغماً عما اعرب ونغنهايم من رغبته في مساعدتي لم الق من سفارته اقل مساعدة بل كنت كثيراً ما ارى مقاومة لمساعيَّ من الالمان اصحاب النفوذ ولذلك لم اتمكن من الاتكال على وعود انور وطلعت بل كان يتوجب علي ان اراها بارزة الى حيز الوجود

الفصل الثاني عشر

نوتر دام ده سيون

كان يوجد في الاستانة مدرسة فرنسوية تديرها عدة راهبات راقيات . تؤمها بنات الطبقة العليا في الاستانة لتتلقى فيها العلوم والفنون واللغات الراقية وكانت تلك المدرسة آخر ماأوصاني به السفير الافرنسي قبلما غادر الاستانة

استيقظت في صباح احد ايام تشرين الثاني (نوفمبر) وكانت مخاوفي على تلك

المدرسة قد ملأت مخيلتي فحلمت في الليل ان الاتراك هجموا عليها ونهبوا ما فيها. اخبرت زوجتي عن حلمي فقالت انها تشعر بشيء من ذلك ايضاً . فعزمنا للحال ان نذهب لنرى اذا كان من سبب حقيقي لتلك المخاوف التي كانت تساورنا . فتناولنا طعام الصباح بسرعة وركبنا السيارة وذهبنا الى نوتر دام دي سيون . ولما اقتربنا من البناية لم نسمع الضجة المعتادة بل كان السكوت سائداً في كل الانحاء . ارتقينا درجات السلم فتبعنا خمسة انفار واحاطوا بنا احاطة السوار بالمعصم ولما رأت الراهبات ان السفير الاميركي مقبل وبصحبته انفار الشرطة ازدادت مخاوفهنَّ . ثم نظرت الى الانفار وسألتهم بالانكليزية قائلة — ماذا تريدون ؟

لكنهم لم يفهموا تلك العبارة وبما ان معرفتي للتركية كانت قليلة جداً لم اتمكن من البحث معهم انما تمكنت ان افهمهم اني السفير الاميركي فابتعدوا عني محترمين مركزي لا شخصيتي . في تلك الاثناء ارسل الراهبات يدعون رئيستهن وكانت هذه المرأة من اشرف عائلات فرنسا واكرمها محتداً كرست حياتها لخدمة التربية والتهذيب فاخذت هذه تقص علي الحادثة بحذافيرها ثم استدعت احدى الراهبات اللواتي يجدن التركية وسألت اولئك الانفار عما يريدونه فقالوا انهم تلقوا الامر من مكتب مدير البوليس — بدري — وفحواه ان كل مدارس الاجانب يجب ان تقفل في ذلك الصباح وان الحكومة ستستولى على المباني ومحتوياتها . كان يوجد في ذلك الدير نحو اثنتين وسبعين معلمة وراهبة — واولاء — صدر امر مدير البوليس بزجهم في غرفتين فقط الى ان يتم التفتيش واما التلميذات فيجب ان يرمون في الشارع ـ ولا يقدر احد ان يتصور فظاعة ذلك الامر الا حينما يعلم ان ميازيب السماء كانت تتدفق على الارض

علمت انه لا يمكنني ان اتصرف بهذه المسألة بدون ترجمان السفارة التركي فكلمته بالتليفون ولم يمض عليه بضع دقائق الا وكان حاضراً . كنت انا قد اوقفت تنفيذ اوامر الشرطة حتى اتى ترجماني وفي تلك الاثناء كانت زوجتي قد استعلمت بالاسهاب عن الحادثه من باقي الراهبات . وكانت قد درست فلسفة اخلاق الاتراك درساً دقيقاً فعلمت انهم لم يأتوا ذلك العمل الا طمعاً بالربح المادي وللحال سألت احدى الراهبات ـ

ـ هل عندكن نقود في الخزينة ؟

فاجبنها كلهم انه كان عندهن كمية كبيرة من النقود محفوظة في الدور العلوي فسألتني ان اشغل الشرطة قليلاً لكي لا يتبعوها وصعدت الى حيث كانت النقود فوجدت الني ليره ذهبية كان الراهبات قد جمعنها ليستعملنها في حين الحاجة اليها . وفضلا عن هذه النقود الذهبية كان عندهن عدد كبير من الرهائن والودائع الثمينة والاوراق المهمة بينها فرمان المدرسة الشاهاني

علمت مسز مورغنتو انهُ لو علم الشرطة الاتراك بذلك الكنز لما ابقوا على شيء منه فاخذت اذ ذاك تخفي ماقدرت على اخفائه في ثيابها ومشت بين صفوف الشرطة الى السيارة وذهبت فيها الى السفارة الاميركية لتضع النقود في محل امين ثم عادت الي الدير وكررت ذلك العمل فتمكنت بتلك الواسطة من ان تخلص من يد الاتراك كمية من النقود ساعدت اصحابها ايام الضنك والجوع

وفي تلك الاثناء كان بدرى مدير البوليس قد جاء . واخبرني ان طلعت اصدر الامر باقفال كل المعاهد العلمية الاجنبية . ثم قال باسماً ـ عزمنا ان نتم كل شيء في الصباح قبل ان تتمكن من معارضتنا ولكن يظهر لي ان جفنك لا يغمض عينك ولا تنام . فقلت له — ان عملك هذا جنون محض . الا تعلم انى سأكتب كتاباً في المستقبل اصف فيه اختباراتي في الاستانة

فقال بدري ـ هل تنوي حقيقة ان تؤلف كتابا عن الحالة هنا ؟ ـ نعم كل السفراء السابقين كتبوا كتباً يصفون فيها اختباراتهم الشخصية وحينما اكتب كتابي ستكون انت احد المذكورين فاما للخير واما للشر والفساد

هؤلاء الراهبات لم يضررن احد بل هن يبذلن وسعهن لتربية بناتكم ـ فلماذا تعاملونهن بهذه الطريقة السيئة . فأثر كلامي هذا في بدري واوقف تنفيذ الاوامر حتى نتمكن من مخاطبة طلعت تلفونياً

لم يمض عليه بضع دقائق حتى سمعته مقهقهاً وهو يقول ـ جربت ان اعمل كل هذا دون معرفتك ولكنك غلبتني . لماذا تهتم بهذه الامور . الم يفعل الفرنسيون انفسهم اكثر من هذا برهبانهم وراهباتهم ؟ افلا يحق لنا ان نفعل اكثر من هذا؟ وبعد اللتيا والتي اتفقنا على عدم تنفيذ الاوامر الى ان تسنح الفرصة للبحث في هذا الموضوع ملياً . ففرحت رئيسة الدير بذلك ولكن بدري لم يعتم ان قال



﴿ غليوم الثاني بثياب فيلد مارشال تركي ﴾

حسناً نترك الراهبات ولكن نريد نقودهن ـ فناقشته طويلاً في ذلك الموضوع واخيراً سلمت معهُ لاني كنت اعلم ان كل الاشياء الثمينة نقلت الى السفارة الاميركية

فتشوا كثيراً ولكن عبثاً كانوا يفتشون وحتى اليوم لا يعلمون ماحدث للنقود التي كانوا يحاولون الحصول عليها

اما بدري فاخذ يفتكر بما قلته عن تأليف الكتاب وبقي يذكرني بقولي في الاسابيع التالية . وبقيت اهدده بأني سأصوره في ذلك الكتاب رجلاً نذلاً سافلا اذا لم يغير معاملته للأجانب

وفي احد الايام سألني عما يجب ان يفعله لكي يذكر بالحسنى فسنحت اذ ذاك لي فرصة كنت اترقبها من وقت بعيد وذلك ان تجارة الرقيق الابيض كانت من اقبح شرور الاستانة .وكانت قد تألفت لجنة لمحاربة ذلك الداء الاجتماعي الفظيع وانتخبت انا رئيس شرف لها

فقلت لبدري لقد اصبحت منذ وقوع الحرب ذا سلطة كبرى وانه اذا شئت تقدر ان تفعل مايخلد لك ذكراً حسناً ويخلص عاصمة مملكتك من وصمة ادبية ولطخة عار اجتماعية . فصادف هذا الاقتراح قبولاً حسناً لديه ولاحق ذلك العمل الى النهاية بدربة فائقة

لم اتمكن اذ ذاك من تأليف الكتاب . ولكني شعرت انه يجب ان اذكر ذلك العمل في احدى الصحف الاميركية فارسلت صورته وخلاصة ذلك العمل الى جريدة التيمس النيويوركية وحينما وصلني العدد حيث نشرت صورته دعوته واريته اياها فسر سروراً لا يوصف وكان ذلك آخر عهدي به كمقاوم لاعمالي ومحبط لمساعي

الفصل الثالث عشر

المانيا والجهاد

في اشهر الحرب الاولى كان السفير الالماني في تركيا والرأى العام فى المانيا موالين لحكومة الولايات المتحدة الاميركية ولكن حالما اعلنت تلك الحكومة انهُ ليس بوسعها خرق قوانين الحياد في سبيل مصالح المانيا تغير موقف الالمان الودي واصبحوا ينظرون الى ولسن وحكومته بعين العداء

ولم يكن لدي ونغنهايم حجة يبديها الا قوله لماذا تبيع حكومة الولايات المتحدة الذخائر الحربية للحلفاء ولا تبيع المانيا . واني اذكر تماماً اني لم التق بهِ مرة ألا وشرع يبحث في ذلك الموضوع وحينما بدأت الحلفاء باطلاق القنابل على معاقل الدردنيل ازدادت حماستهُ عند البحث في ذلك الموضوع لانهُ كان يدعي ان اكثر القنابل التي استعملت هنالك صنعت في اميركا وبيعت للحلفاء

جاءني في احد الايام وأمائر الغضب الشديدة بادية في محياه ومعه قطعة من قنبلة وقد حفر عليها هذه الاحرف .B.S.Co وقال

— انظر الى هذه . الا تعلم الى ماذا تشير هذه الاحرف ؟ انها تدل على انها صنعت في معمل شركة اميركيه والله اكبر حينما يعلم الاتراك ذلك

اننا الآن نجمع الادلة الكافية وعندما يحين الوقت سنطالب الولايات المتحدة بكل ضرر احدثته قنابلها التي اشتراها الحلفاء . نخبر لكم ان تخبرهم انهُ اذا توقفوا عن بيع الذخائر لاعدائنا تنتهي الحرب في مدة وجيزة

فدافعت عن موقف اميركا وقلت له ان المانيا باعت الذخائر الحربية لاسبانيا في حربها مع اميركا . ولكن كل ماقدمته من الادلة لم يجد نفعاً لانه كان يعتقد ان ذخائر اميركا الحربية كانت تساعد اعداءه على احراز النصر ولم يكن يهتم بقانونية العمل او عدمها ولذلك رفضت ان اكتب الى الرئيس ولسن بهذا الصدد رفضاً باتاً

بعد هذا الحادث بعدة ايام ظهر على صفحات جريدة اقدام التركية مقالة ضافية تبحث عن العلاقات التركية . الاميركية . وكان الهدف الذي ترمي اليه تلك المقالة ان موقف اميركا الودي نحو تركيا لم يكن مطابقاً لما كانت تأتيه حكومة الولايات المتحدة من بيع الذخائر الحربية لاعداء تركيا وفي آخر المقالة كتبت هذه العبارة،

«وقد روى مكاتبو الصحف في ساحة الدردنيل ان اكثر القنابل التي اطلقت على الحصون من صنع المعامل الاميركية »

في ذلك الحين كانت السفارة الالمانية مسيطرة على سياسة اقدام وادارتها ، وبما اني علمت ان وجود مقالة كهذه قد يؤدي الى صعوبات انها في غنى عنها عزمت على متابعة المسألة الى النهاية فبدأت بالاستخبار من ونغنهايم لاني كنت اعتقد انها كتبت بامره

اما هو فجرب ان يتنصل من تبعتها ولـكن اظهرت له ان الافـكار في المقالة المنشورة في اقدام كانت نفس الافكار التي صرح بها امامي من قبل وان بعض العبارات تكاد تكون ذاتها وقلت له ايضاً

— اما انت كتبتها بنفسك او كتبت بامرك بعد ان وقف كاتبها على افكارك ومراميك فلم يتمكن اذ ذاك من الانكار فقال — حسناً ولكن مالنا ولها فقلت له : —

لا بل يهمني ذلك جداً . فأما ان تتوقف عن اثارة ساكن الاتراك على الولايات المتحدة واما ان ابدأ بحركة انت تعلم انها تناقض سياستكم تمام المناقضة . قلت : ياحضرة السفير ان موقفكم هنا ضعيف جداً وان الرأي العام في تركيا لا يستميلكم بل يفضل الاميركيين عليكم . هب اني ذهبت الآن الى ذوي السلطة وقادة الشعب وقلت لهم ان الالمان يستعملونكم لتنفيذ مآربهم الوطنية وانهم لايحسبونكم حلفاء بل خدم تساعدونهم لاتمام مايريدون — وانت تعلم ايضاً انك بعملك هذا تثير الاتراك على مدارسنا وكنائسنا : فاما ان تتوقف عن هذا العمل حالا واما ان اثير الرأي العام في كل انحاء المملكة عليكم — ها انا حاضر للنزال !

فتغير موقف ونغنهايم فجأة فنهض ووضع يده على كتفي وقال —

— لنكن اصدقاء . اري انك مصيب في هذا الامر لأن عملي يضر اصدقاءكم المرسلين وانا اعدك ان هذه الحركة ستنتهي حالاً

ومن تلك الساعة لم تعد الصحافة التركية تذكر الولايات المتحدة الا بالاجلال والمحبة

ولكن حينما اذكر ماقاله لي ونغنهايم عن غايتهم من ادخال تركيا في الحرب اكاد اتميز غضباً

هنا لك في مكتبه ، ولفافتهُ في فمه ، قال لي ان المانيا كانت ترمي الى اثارة العالم الاسلامي على المسيحيين — الى انها كانت تنوي تسعير حرب دينية للقضاء على سلطة انكلترا وفرنسا في مستعمراتهما الاسلامية كالهند ومصر والجزائر وغيرها . ان تركيا بحد ذاتها ليست شيئاً مهماً . جيشها صغير ضعيف ولا ننتظر منهُ اعمالاً مجيدة في ساحات القتال ولكن نحن لا نرى في تركيا الا العالم الاسلامي فاذا تمكنا من اثارة الرأي الاسلامي العام ضد انكلترا وفرنسا وروسيا نكون قد ارغمناهم على طلب الصلح في وقت قريب

وفي الثالث عشر من شهر تشرين الثاني اعلن السلطان بصفته خليفة المسلمين الجهاد العام وبعد ذلك بوقت قصير نادى شيخ الاسلام حاضاً كل العالم الاسلامي على النهوض ومحاربة الذين ظلموهم قروناً متوالية وانتهى ذلك الدعاء بهذه العبارة

ايها المؤمنون انكم مستعدون لبذل مهجكم لاجل الحق — الا اجتمعوا حول عرش الخلافة واطيعوا اوامر الله الذي يعدكم براحة العالم الآتي . الا عفروا وجوهكم امام عرش الخليفة واعلموا ان المملكة في حرب عوان مع روسيا وانكلترا وفرنسا وحلفائهم اعدائكم . ان امير المؤمنين يدعوكم ايها المؤمنون لشد ازره في هذه الحرب المقدسة

قرئت هذه الدعوة في الجوامع ونشرتها الجرائد باحرف تستلفت الانظار وانتشرت كثيراً في كل البلدان الاسلامية كالهند والصين وبلاد العجم ومصر والجزائر وطرابلس الغرب ومراكش وغيرها .وكانت اقدام الجريدة التركية الكبرى كثيراً ماتنشر مقالات ضافية تحث فيها الاسلام على الاتحاد ضد اعدائه وهذه عبارة تدل على روح كتابات تلك الجريدة اقتطفها من احدى مقالاتها

«ان اعمال اعدائنا انزلت غضب الله على الارض . فيتحتم على كل مسلم .شاباً كان او كهلاً . امرأة او ولداً ان يقوم بما عليهِ — ها قد حان الاجل فيجب علينا ان نحارب بكل مالدينا من العزم والقوة لكي نخلص اخواننا في الدين من ذلهم وعبوديتهم والله لنا خير معين »

هذا قليل مما ظهر علنياً من الدعوة لحرب مقدسة او للجهاد في سبيل تحرير الاسلام . ولكن ظهر في ذلك الا وان نشرة وزعت سراً في كل البلدان التي يقطنها مسلمون : كتبت تلك النشرة بلغة القرآن الشريف ـ العربية ـ لكي تثير الحمية الدينية في كل من يقراءها — وفيها نجد وصفاً مسهباً للطرق التي يجب ان يتبعها الاسلام للتخلص من اعدائهم وسأكتفي بنقل بعض اجزائها : —

— ايها المؤمنون تأملوا حالة الاسلام الحاضرة فلا بد لكم عندئذ من ذرف الدموع الحارة عن حالتهِ المحزنة : انكم تشاهدون البلدان الواسعة وفيها الملايين العديدة من اخوانكم ، في قبضة اعدائكم واعداء الله — الانكليز المشركين — تشاهدون اربعين مليون مسلماً في جاوى يرسفون في قيود الاستعباد للهولنديين الذين يقلون عنهم عدداً . تشاهدون مصر ومراكش والجزائر وتونس والسودان

الملايين يعانون من الآلام اشكالاً والواناً تحت سلطة اعداء الله ورسوله : تشاهدون بلاد سيبيريا وتركستان وكيف وبخارى والقوقاس والقريم وغيرها وسكانها المسلمين يئنون تحت نير الظلم والاستبداد : تشاهدون بلاد العجم على وشك التفرق والانقسام وترون مدينة الخلفاء مسرحاً لمظالم المستبدين : وكيفما وجهتم انظاركم تشاهدون اعداء دينكم الانكليز والروس والفرنسويين يدوسون حقوقكم ويسومونكم مر العذاب والشقاء . اننا لا نتمكن من احصاء مساوئهم فهم يريدون هدم بناء الاسلام الفخم ومحو اثر المسلمين من وجه البسيطة

لقد طفح الكيل ! !

انتم تزرعون وهم يحصدون — انتم تتعذبون وهم في بحبوحة من العيش يرحون انتم الى ادنى الدرجات تهبطون وهم درجات العز والمجد يتسنمون — هم الاسياد وانتم العبيد — وما ذلك الا نتيجة تفرقكم وانقسامكم — هاقد اعلنت الحرب المقدسة وبلاد المسلمين ستتحرر من ايدي حاكميها الظالمين . فالجهاد اذاً واجب مقدس على كل مؤمن . اعلموا اذاً انكم تقدرون ان تهرقوا دماء الاعداء دون ان تخطئوا — الا دماء حلفائنا (وهنا يذكر الالمان والنمساويون) فكل من يقتل واحداً من هؤلاء المشركين الذين يستبدون بنا سراً وعلناً خيراً يجازيه الرحمان الرحيم ، فليقسم كل مسلم في كل انحاء العالم بانهُ يقوم بما عليه نحو الطغاة الظالمين لانهم اعداء الايمان

لقد حان الاجل فلننهض كرجل واحد — سيفه في اليد الواحدة وبندقيته في الاخرى ، في جيبه قذائف تجلب الموت الزؤام وفي قلبه حرارة الايمان ولنرفع صوتنا قائلين الهند للمسلمين الهنود (وهلم جرا ذاكرين كل بلاد مسلمة)

وكل من يتصفح تلك الكراسة متاملاً يرى اثراً لليد الالمانية في انشائها مثلا — علم الالمان ان اعلان الجهاد العام يضر بهم ايضاً فدفعوا الكاتب الى استثناء « حلفائنا »

اشاروا على المسلمين ان يألفوا جيشاً لا يد للاجانب فيهِ ولكنهم استثنوا القواد والضباط الالمان حلفاءهم

كانت الدوائر السياسية الالمان تعتقد انها ارتكبت خطأً عظيماً بجر انكلترا لخوض غمار الحرب مع اعدائهم ولذلك ارادوا بواسطة ونفنهايم ان يقسموا ظهرها

باثارة الفتن في مستعمراتها الجديدة بواسطة اعلان الجهاد الاسلامي فتخوفت جداً اذ ذاك من انتشار هذه الدعوة

ولكن فشلت تلك الدعوة للجهاد منذ البدء لان المسلمين في كل الانحاء علموا ان انكلترا تعاملهم احسن جداً مما يعاملهم غيرها من الدول الاوربية والمسلمون في كل الانحاء لم يفهموا الماذا يقضي عليهم دينهم بمحاربة البعض والابقاء على البعض الآخر

وهكذا فشل امل المانيا بالحصول على انتصار باهر سريع بواسطة اعلان الحرب المقدسة واثارة عواطف الاسلام على اخوانهم في البشرية

الفصل الخامس عشر

جمال باشا — الالمان والصلح .

في اوائل نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٤ رأت محطة حيدر باشا في الاستانة مشهداً عظيما ووداعاً لم يسبق لهُ مثيل

كان جمال باشا ناظر البحرية واحد الثلاثة الذين يديرون دفة الملك في تركيا ذاهباً الى سورية ليستلم قيادة الفيلق الرابع الهمايوني . فخرج كل اعضاء الوزارة مع جمع غفير يضم علية القوم لوداعه وكان الجيش يحييه ويهتف له كمخلص مصر وقبل ان يصفر القطار مؤذنا بدنو ساعة السفر اعلن جمال باشا على رؤوس الاشهاد ما ملخصهُ —

« قد عقدت النية ان لا ارجع الى الاستانة قبل افتتاح مصر »

لم اكد ارى ذلك المشهد الفخم حتى رجعت بي مخيلتي تطوي الاعوام والقرون الى ان استقرت في تاريخ روميه على مشهد يشبه مارأيته في القرن العشرين الا وهو حفلة وداع مرقس انطونيوس حينما غادر روميه ليخضع الشرق

كانت تركيا — مثل رومية في ذلك الوقت — في دور الانحطاط والانحلال فرأى جمال باشا ان يبذل جهده لعله يتمكن من ان يصيرها كما لولاية غنية وكان يؤمل انه ان افلح بافتتاح مصر ينال شهرةٍ عالمية واسعة

ابتسم اصحاب السلطة في الاستانة لذهاب جمال لانه كان دائمـاً حجر عثرة في

سبيل تنفيذ مآربهم الشخصية اذ كان مثلهم طموحاً الى الانفراد بالسلطة. فأرادوا ان يبعدوه الى ولاية في اطراف المملكة حيث يتمكن من ان يحيا حياة الابهة والمجد فزينوا لهُ افتتاح مصر باجمل الصور وابهاها ففره الطمع لاعتقاده انه اذا افتتحها يخلد اسمه في التاريخ مقروناً بالمجد والفخر

وفضلاً عن ذلك لم يكن محبوباً من سكان العاصمة . لما عرف بهِ من القساوة وحب سفك الدم

قرن طلعت الى بعض نياته الشريرة طلاوة الوجه وحلاوة الحديث فاستترت ، وجمع انور الى عيوبه واشراره شجاعة نادرة وصورةً حسنة فغطت الثانية الاولى ولكن وجه جمال . قال لي احد الاميركيين المتضلعين من علم الفراسة — يجمع القوة والشراسة فلا يقدر احد ان يرى فيه لطفاً وايناساً . كانت عيناه سوداوان اذا نظر اخترق الصدور وضحكته كانت ممزوجة بشيءٍ من المعاني الوحشية

بعد ما التقيت به لاول مرة سألتُ عنه وعن تاريخهِ وحياته في الحكومة التركية فقيل لي انهُ رجل يحسب الاعدام من واجباته اليومية . كان — مثل اكثر الاتحاديين — من اصلٍ وضيع . انخرط في سلك جمعية الاتحاد والترقي ولم يتم ان اصبح من زعمائها المقدمين . وبعد قتل ناظم عين جمال حاكماً عسكرياً للعاصمة ونيط به امر ابعاد كل مقاومي سياسة الاتحاديين واعدامهم فقام بتلك المهمة احسن قيام

بعد ذلك رقي الى منصب وزير البحرية فلم يتمكن من الاتفاق مع رفاقهِ لان سياستهُ كانت فرنسوية وسياسة رفاقه — انور على الاخص — كانت المانية

اذا اعتقد ان جمال هو الرجل الوحيد الذي لم يقع ضمن دائرة تأثير الالمان . ولكن سياسة « تركيا للاتراك » كانت قد بدأت تتجسم فيه . كان يبغض الشعوب الغير التركية في المملكة العثمانية من عرب اسلام ومسيحيين ويونان وارمن ويهود وشركس وكان طموحهُ للعلي يدفعه الى الاختلاف مع انور وطلعت وقد صرحا امامي غير مرة واحدة انهما لايقدران ان يخضعانهُ . فزينا له افتتاح مصر ونجحا بابعاده عنهما . وهذا التعيين نفسه يدل على اختلال النظام في تركيا . كان جمال وزير البحرية ومركزه الحقيقي في بناية وزارة البحرية . ولكن تنفيذاً لبعض المآرب الشخصية ارسل الى صحراء سينا المحرقة

على ان ارسال جمال لاسترجاع مصر لم يكن الا عملا واحداً من الاعمال التي استخدمتها الحكومة التركية — مدفوعة من الالمان — لاثارة الاحقاد والضغائن بين الشعب التركي والحلفاء

مضى على تركيا نحو قرن كامل وهي تخسر من املاكها الواسعة الولاية إثر الاخرى . ولكن لم يؤثر فيها خسارة كل ولاياتها جمعاء مثل خسارة مصر . كان الانكليز قد احتلوها احتلالاً عسكرياً ولكنهم كانوا معترفين بسلطة السلطان العثماني الاسمية . ثم لما دخلت تركيا الحرب ضد انكلترا وحلفائها اعلنت الحكومة البريطانية ضم مصر الى مستعمراتها فاستاءت الحكومة التركية لذلك العمل واعلنت للشعب انها ارسلت جمالاً لاسترجاعها (١)

وغادر انور الاستانة حينئذٍ ليقود الحملة التركية في القوقاس لان الاتراك كانوا يؤملون ان يسترجعوا الولايات التي فقدوها هنالك . ولكن انور لم يغادر العاصمة بين هتاف الجمهور وتهليلهم كما فعل جمال بل تركها ولم يعلم به احد

كل هذه الظواهر تدل القارىء على ان الاستانة كانت قد اصبحت مركزاً مهماً من مراكز الحرب العامة . ولكن رغماً عما كنا نراه فيها من الاستعدادات الحربية والبحرية — اصبحت بغتةً اعظم مركز للمفاوضات بشأن عقد الصلح

كان الاسطول البريطاني يهدد الاتراك بهدم معاقل الدردنيل والعاصمة كانت تموج بالجنود الذاهبة الى ساحة الوغى ولكن كل هذه الظاهرات لم تهم السفير الالماني لانه كان يفتكر بشيء واحد وهو الوصول الى « سلم عاجل » لانهُ علم ان اعظم خدمة يقدر ان يقوم بها نحو امبراطوره ووطنهِ هي الحصول على سلم شريف سريع فيخلص المانيا من عواقب حرب طويلة وشرورها

وفي ايلول سنة ١٩١٤ اخذ يفاوضني بهذا الموضوع لان المانيا « لم تكن قد استعدت للحرب فقط بل للسلم ايضاً » قال :

— « ان القائد الحكيم هو الذي لا يبدأ بتنفيذ خطة الهجوم ما لم يكن قد هيأ خطة التراجع ايضاً — وهذا المبدأ ينطبق على حياة الامم ايضاً. لا بد لكل

---

(١) ان الحوادث التي جرت بعد عقد الهدنة وتقدم القضية المصرية معروفة لدى القراء فلا نتولى تلخيصها في هذا المقام

حرب — من نهاية ولذلك يتحتم علينا ان نهيء خطة الحرب السلمية وعلى ان يرمي بجنودها الى ساحات القتال » .

هذه مقدمة ونغنهايم الفلسفية . ولكنه لم يكن ميالاً الى النظريات فقط ان لم يكن منها نفع مادي محسوس له ولمملكته

كانت المانيا قد استعدت لحرب قصيرة الامد لانها كانت تعتقد انها ستتمكن من قهر اعدائها بمدة وجيزة . ولكن اخفقت آمالها تلك وعرف ساستها ان انكسارهم في حرب طويلة قد صار مرجحاً ولذا فهموا ان تماديهم فيها يصبح ضرباً من الجنون لانهم بذلك يخسرون مركزهم الاقتصادي واسطولهم التجاري وعدداً من مستعمراتهم

كان ونغنهايم قد قال لي

— اذا لم ندخل باريس في ثلاثين يوماً نكون قد غُلبنا .وبعد معركة المارن الاولى قال

— لقد اخطأنا خطأً فادحاً لاننا لم نخزن مؤن وذخائر تكفينا لحرب طويلة ولكنهُ خطأ لن نرتكبه في المرة القادمة فسنخزن من القطن والنحاس ما يكفينا خمس سنوات متوالية

ومما يدل على ما طبعت عليهِ السياسة الالمانية من الاثرة وحب الذات وعدم احترام مصالح حلفائها ان العامل الذي دفع ونغنهايم للتعجيل في عقد الصلح هو انفاذ الحملة العسكرية التركية لاسترجاع مصر . قلق ونغنهايم وكل الالمان لخوفهم من نجاح الاتراك في استرجاع مصر فيقف ذلك النصر في سبيل سياستهم الشرقية سداً منيعاً . وذلك لأن المانيا كانت تريد ان تحصل من انكلترا على تصريح باحترام نفوذ المانيا في العراق نتيجة لاعترافها بنفوذ انكلترا في مصر

واشتد الشعور الالماني بوجوب عقد الصلح في اواخر ١٩١٤ وأوائل ١٩١٥ فحولوا انظارهم الى الاستانة لاعتقادهم ان الرئيس ولسن يتداخل في الامر بواسطة سفيره فيفاوض جميع معتمدي الدول

وظهر في الاستانة رجل الماني لعب دوراً كبيراً في السياسة العالمية أثناء الحرب الكبرى وذلك الرجل هو الدكتور فون كلمان الذي أصبح بعدئذ

ناظر خارجية المانيا وعقد معاهدة برست ليتفسك الشهيرة . ولد هذا الرجل في الاستانة . وكان والده رئيس شركة سكة حديد اناضوليا ولذلك كان يفهم فلسفة اخلاق الاتراك فهماً ساعده جداً في اتمام الشؤون التي نيطت به حينما عين مستشاراً للسفارة الالمانية في الاستانة بدلاً من فون موتيوس . ظهر بمظاهر الصداقة المتينة للسفارة الاميركية حال وصوله للاستانة واصبح موضع اعجاب الجميع لانه كان كثيراً ما يحدثنا عن اساليب الحرب الحديثة فأخذ بمجامع القلوب ولكن كل احاديثه كانت تحوم حول نقطة واحدة وهي سياسة المانيا العالمية

ظننت في الاول ان فون كلمان لم يكن بالرجل الخطير . ولكن بعد ان اجتمعت به عدة مرات علمت انه كان ذا اطلاع واسع على سياسة العالم عارفاً بداخلها وخارجها ولكن لم اعلم ان اكتشفت تأثير ذلك الرجل السري . لم يكن ينبس ببنت شفة في الاجتماعات الرسمية ولكنهُ كان يصغي الى الحديث فيعي كل قول ويحلل كل معنى فكان يد ونغنهايم اليمنى ومساعده الاكبر

في اواسط دسمبر ذهب فون كلمان الى المانيا وبقي فيها نحواً من اسبوعين . وعند رجوعه لاحظت حركة غير اعتيادية في السفارة الالمانية

كان حديث ونغنهايم شأن الصلح غير رسمياً قبل ذلك ولكنه بدأ الان يتكلم رسمياً باسم الحكومة الالمانية فعلمت ان فون كلمان اتاه بتعليمات تشير عليه بالابتداء بالمفاوضة الرسمية بشأن عقد الصلح . وحينما كنت اجلس مع ونغنهايم لنبحث في مسألة عقد الصلح كان فون كلمان يجلس معنا لا يفوه ببنت شفة فاقترح ونغنهايم ان يناير ١٩١٥ انسب الاوقات لانهاء الحرب . فما هو الدافع لذلك الاقتراح ؟

كانت ايطاليا لم تزل على الحياد انما كان يخشى جداً خوضها غمار الحرب في جانب دول الاتفاق

وكان كل من بلغاريا ورومانيا في نفس موقف ايطاليا

اما انكلترا وفرنسا فكانتا تتأهبان للهجوم الكبير في اول الربيع المقبل وبقيت البوارج البريطانية تتجمع امام مدخل الدردنيل فاصبح الكل يعتقدون انها ستدك معاقله وتهجم على الاستانة فتحتلها عنوة

وكان قد وهن عزم الاتراك من الحرب وضاق صدرهم من طولها فخاف الالمان ان يعقد الاتراك صلحاً منفرداً

كان الجو مظلماً في وجه المانيا ولذلك طلبت عقد الصلح ، على اني علمت انها اذا رأت ان الحالة تحسنت قليلاً عادت الى سياستها الحربية الاولى

وكان اكبر حائل لعقد الصلح في ذلك الوقت نية المانيا على نقضهِ حينما تجد نقضه موافقاً لمصلحتها

كانت المانيا قد اخطأت في حسابها وحينما رأت ان ما عندها من الذخيرة والمؤن سينفد قريباً شرعت تبحث عن طريقة لعقد الصلح معتمدة ان تفك نفسها من قيده حين سنوح الفرصة

وحينما اراجع مذكراتي وما كتبته فيها من عبارات ونغنهايم ارى استعماله الكثير لهاتين العبارتين . في الحرب المقبلة — المرة القادمة لا نفعل كذا وكذا

فطلب الالمان اذاً لم يكن سلماً حقيقياً ثابتاً ، بل شيئاً يشبهُ هدنة يتمكنون في اثنائها من استجماع قواهم الاقتصادية والتجارية . والمبدأ الذي اقترحهُ ونغنهايم لعقد الصلح هو ان يجتمع ساسة الدول المتحاربة وينهوا النزاع على مبدأ — خذ — هات . وأذكر بوضوح ماقاله لي مرة من انهُ لايوافق مطلقاً على ان يعرض كل من الفريقين شروطه على الآخر قبل وقت الاجتماع لأنه اذا قررنا ان يقدم كل من الفريقين شروطهُ للآخر قبل عقد الهدنة فكل مانبذله في سبيل عقد الصلح يذهب ادراج الرياح فالمانيا مثلاً تهيء شروطاً يحسبها الحلفاء فوق حد الاعتدال وهكذا تنظر المانيا الى شروط الحلفاء . فالافضل ان نعقد هدنة اولاً ثم نتباحث في شروط الصلح واني أؤكد لك ان السلم اذ ذاك يصبح في حيز الامكان

كتبت اذ ذاك الى واشنطون باسطاً لديهم حقيقة الحال فرفضت حكومة الولايات المتحدة ان تتداخل في عقد صلح لا يلبث ان يجف حبره حتى تنقض شروطهُ وهكذا اخفقت المانيا في هجومها السلمي الاول ، ، وانتهت المفاوضات بهذا الشأن في اول مارس حينما غادر فون كلمان الاستانة ليأخذ منصبهُ في البلجيك وفي آخر زيارة له للسفارة الاميركية كانت هذه العبارة كلمات وداعه

— ياسعادة السفير سنعقد الصلح بعد ثلاثة اشهر حسبما نشتهي

الفصل السادس عشر

الهجوم على الدردنيل

ذكرت في الفصل السابق ان تخوف الالمان من هجوم الانكليز على الدردنيل واحتلال الاستانة كان من العوامل التي دفعتهم للعمل على عقد صلح عاجل

ثم تكاثرت الاشاعات في كانون الثاني سنة ١٩١٥ ان دول الاتفاق كانت قد هيأت اسطولاً ضخماً مؤلفاً من اربعين مدرعة ينوي اختراق مضايق الدردنيل وافتتاحها عنوة وساد الاعتقاد بين سكان الاستانة ان ذلك الاسطول سينجح في مهمته

كان ونغنهايم يشارك العامة في اعتقادهم هذا وفون درغلتز باشا الذي قضى زمنا طويلاً في تركيا يدرب جيوشها وينظمها ويحصن معاقلها كان يعتقد ايضاً بامكانية افتتاح الدردنيل وهاك ما كتبته في يوميتي عن اعتقاده بعد محادثة طويلة مع ونغنهايم بذلك الشأن

« يعتقد ان معاقل الدردنيل حصينة جداً ولكنه يعتقد ايضاً انه اذا رأت انكلترا ان افتتاح الدردنيل يرجح كفة الحرب تتمكن بخسارة عشر بوارج ان تخترقه وتحتل الاستانة بعد دك حصونه بوقت يتراوح بين الثماني والعشر ساعات » .

هذا تمام ما نقله الي ونغنهايم عن اعتقاد فون در غلتز بقوة حصون الدردنيل وفي نفس ذلك النهار سألني ان احفظ له في سفارتي عدداً من الاشياء النفيسة الثمينة التي كانت عنده فظهر لي من ذلك انه يهيّىء نفسه لمغادرة الاستانة عند الاضطرار

كانت حالة تركيا الحربية والاقتصادية والصحية مضطربة للغاية عندما اخذت هذه الاشاعات بالازدياد

كان جمال — القائد الذي نودي به « فاتح مصر » قد اخفق في حملته على قنال السويس وكسر جيشهُ شر كسرة :

وانور — الذي كان قد عقد النية ان يعيد ما خسرته تركيا في القوقاس رجع وقد تكال جيش الروس باكاليل الظفر بعد ان دحروا الاتراك وتوغلوا في اراضيهم. وفضلاً عن ذلك كانت امراض التيفوس والدوسنطاريا وغيرها قد تفشت في الجيش العثماني حتى بلغ عدد الوفيات مبلغاً لا يصدق

وكان كثيرون يعتقدون ان انكلترا تعبيء جيشاً جراراً لغزوة العراق كما انهم كانوا يعتقدون ان بلغاريا ستنضم الى دول الاتفاق فتزحف بجيشها الباسل على العاصمة ، فتضطر رومانيا واليونان الى اقتفاء اثرها — وكانت ايطاليا حينئذ تساوم انكلترا وفرنسا على ثمن دخولها في الحرب حليفة لهما وقد اوشكوا ان يتفقوا

على ان حالة تركيا الداخلية كانت اشد خطراً واكثر شقاء من ذلك . في كل يوم كان يموت عدد كبير من الجوع والمرض . وسيق الرجال والشبان الى الجيش فبقيت النساء والاولاد دون من يعولهم . وكانت الخزينة فارغة لان الحجر الاقتصادي على الشواطىء العثمانية منع ماكانت تربحهُ الحكومة من المكوس والضرائب

تلك كانت الحالة — وبات الكل ينتظرون ثورة الشعب على طلعت وانور ورفاقهما

تلك كانت الحالة في تركيا حينما سمع الشعب والحكومة ان الاسطول البريطاني العظيم كان قد عزم على دك معاقل الدردنيل واحتلال العاصمة فوجدوا انفسهم كالطير قص جناحاه امام تلك القوة الهائلة التي طالما سمعوا بذكرها وطالما ردد التاريخ صدى انتصاراتها الباهرة

ولذلك حينما تحققت تلك الاشاعات وبدأ الاسطول البريطاني باطلاق قنابله على حصون الدردنيل في اول كانون الثاني سنة ١٩١٥ هيأ مدير بوليس العاصمة قطارين . الواحد ليقل السلطان وحاشيته واعضاء الحكومة الى آسيا الصغرى والآخر ليقل ونغنهايم وبالافيسيني واتباعهما الى خارج تركيا

وفي ٢ كانون الثاني جرى بيني وبين السفير النمساوي حديث طويل في هذا الصدد وأراني ايضاً جواز السفر مذيلاً بامضاء بدري لكي يتمكن السفير وحاشيته من مغادرة تركيا في القطار الخاص . وأراني ايضاً تذاكر القطار جاهزة لتستعمل عند مسيس الحاجة . وقال لي ان كل قطار سيكون مؤلف من ثلاثة عربات فقط حتى يتمكن من الجري بسرعة فائقة واصبح الكل مستعدين لتلك الساعة العصيبة

اما ونغنهايم فلم يجرب ان يخفي مخاوفه . كان قد عزم على ارسال زوجته الى المانيا ولذلك دعا زوجتي لترافقها فتخلص من الاخطار المحدقة

عندئذ قال لي ونغنهايم انه لا بد من ان تعم الفوضى حين وصول الاسطول البريطاني وتبدأ المذابح والفظائع فتصبح اذ ذاك حياة الاجانب في خطر عظيم وبما انه لا يمكن تمييز الانكليزي عن الاميركي اقترح علي ان اجعل للاميركيين شارة خاصة تميزهم عن غيرهم

لكني علمت ان ذلك الاقتراح كان يرمي الى الحصول على طريقة تفرق بين الانكليزي والاميركي فيسهل معرفة الاول وتعذيبه واضطهاده ولذلك رفضت الاقتراح رفضاً باتاً

والحادثة التالية تظهر حقيقة الحالة التي كانت سائدة في الاستانة في ذلك الاوان

لاحظت في احد الايام ان بعض النوافذ في السفارة الانكليزية كانت مفتوحة فذهبت مع مسز مورغنتو لاقفالها ففضضنا الختم الذي كان على بابها ودخلنا فاقفلنا النوافذ ورجعنا . بعد ذلك بنحو ساعتين اتاني ونغنهايم وعلى وجهه امارات الاضطراب وقال انهُ سمع اشاعة مآلها ان السفير الاميركي ذهب الى السفارة الانكليزية لكي يعدها للاميرال الانكليزي فاسرع لكي يتحقق الخبر . فابتسمت قليلاً واخبرتهُ بجلية الواقع

جرى كل ذلك في الاستانة والاساطيل البريطانية لم تكن قد اطلقت قنبلة واحدة على حصون الدردنيل لأن الوزارة الانكليزية لم تكن قد قررت ان ترسل تلك الحملة البحرية بعد

والذي يطالع المفاوضات السياسية الرسمية يرى ان حكومة روسيا سألت وزارة البحرية في لندن ان تبعث اساطيلها الى الدردنيل لكي تخفف وطأة الاتراك في ساحة القوقاس . فاجابت الوزارة الانكليزية انها ستفعل ذلك لكنها لم تقرر الا في ٢٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥

وسبب تأخر الحكومة الانكليزية في قرارها هذا هو عدم اجماع الآراء على امكانية نجاح ذلك العمل

اما نحن في الاستانة فلم نعلم بكل هذه المفاوضات الطويلة بشأن الهجوم على الدردنيل ولكن ظهرت لنا النتيجة في اواخر شباط (فبراير)

جاءني المركيز بالافيسيني عصاري التاسع عشر من شهر شباط ومعهُ اخبار مهمة . كانت دول الاتفاق قد بدأت ثانية باطلاق القنابل على قلاع الدردنيل بشدة لم يعهد لها مثيل من قبل

في ذلك الوقت كانت الامبراطورية النمساوية في احرج المواقف لان الجنود الروسيين كانوا على وشك الهبوط الى سهول المجر من اعالي الكربات والجيوش الصربية كانت قد دحرت اعداءها على الحدود والصحف الاوروبية وخصوصاً المعادية منها — بدأت تبحث في انحلال الامبراطورية النمساوية وتقسيمها

كان السفير النمساوي رقيق الشعور والعواطف ، يفتخر بامبراطوريته وامبراطورها الشيخ، ولذلك رأيت في عينيهِ معاني القلق والخوف من الخطر الذي يحف بعرش آل هبسبرغ

كانت دول اوربا الوسطى تعتقد ان دخول تركيا في الحرب حليفة لهم واقفال الدردنيل — طريق المواصلة بين روسيا وحلفائها — من العوامل العظيمة التأثير في مجرى الحرب

ولكن جاء عمل دول الاتفاق في الدردنيل منافياً لما يعتقده ساسة الدول الوسطى لأنه اذا احتلت اساطيل دول الاتفاق الاستانة تصبح روسيا صاحبة الحول والطول اذ تتمكن حليفتاها من ان تمداها بالمال والذخائر

ولم تكن حالة ونغنهايم الفكرية اهدأ من حالة رصيفهِ النمساوي لانهُ باحتلال دول الاتفاق الاستانة يكونون قد هدموا ما بناه من النجاح الشخصي في عالم السياسة الالمانية . على اني لم اره بائساً قانطاً بل كثيراً ما كان يجلس في مكتبي يقص عليّ ما ينوي فعله لرد كيد اعدائه في نحرهم

كانت السفارة الالمانية في محل معرض لمدافع البوارج الانكليزية ولذلك كان يعتقد ان سفارته الجميلة ستكون هدف القنابل البريطانية فيزداد خوفهُ وقلقه وهاك ما كان يقول :—

ليطلقوا قنابلهم عليها اذا تجاسروا على ذلك. اذاً لاجعل سفارتي انكلترا وفرنسا رماداً مستطيراً او هباءً منثوراً . اخبر الاميرال ان لا يفعل ذلك لأن الديناميت حاضر

وهنالك عامل آخر كان من اكبر البواعث على قلق ونغنهايم ورصيفه وذلك ان الحكومة التركية كانت قد عزمت ان تنقل الحكومة الى اسكي شهر ولم يود ونغنهايم ان يذهب مع رصيفه بمعية الحكومة لانهُ علم انهُ لا بد للاتراك من ان ينقلبوا عليه بعد سقوط عاصمتهم فيأخذوه اسيراً ويذيقوه مرّ العذاب والشقاء

ولم يشأ ان يبقى في الاستانة لئلا يقع اسير حرب في يد الانكليز ، فبذل جهده ليقنع الحكومة التركية باقامة حكومة موقتة في ادرنه لكنهم رفضوا ذلك لخوفهم من هجوم بلغاريا عليهم

ومن اغرب ما رأيت في تلك الايام العصيبة ان الاعتقاد بنجاح الاسطول البريطاني في الدردنيل كان شاملاً كل رجال السياسة في الاستانة الا انور

حدث انهُ في احد الاجتماعات الاسبوعية التى كانت تقيمها مسز مورغنتو اجتمع كثير من ممثلي الدول منهم ونغنهايم وبالافسيني وجاروني (Garroni) السفير الايطالي ودانكار سناد السفير الاسوجي وكولوشف السفير البلغاري وفون كلمان وغيرهم

وكان موضوع الحديث هل ينجح الحلفاء باختراق الدردنيل؟ فاجمع الكل على ان ذلك مرجح وشرع فون كلمان يتكلم عن احتلال الاستانة كانهُ امر واقع وابدى السفير الالماني خوفه من احتراق سفارتهِ لقربها من الباب العالي فسألني ان احفظ له اوراقه المهمة

وازدادت الاشاعات الكاذبة عن وصول الانكليز لأن اكثرية الشعب كانت تصلي وتضرع الى الله لكي يحبو الحلفاء بنجاح اكيد وفوز سريع ليتخلصوا من عذاباتهم وشقائهم

اما طلعت فشعر بحرج موقفهِ فتجلى خوفه وجزعه في وجهه فكنت تراه دائماً عابساً مقطباً . علم انه بدخول الانكليز الدردنيل واحتلالهم الاستانة ينتهي عمل طلعت اذ لا بد من حدوث ثورة عامة ضده وضد الاتحاديين

ويحسن بي في هذا الصدد ان اذكر شيئاً عن الخطة السياسية التي اتبعها كتشنر خطأها الكثيرون من المنتقدين

لم يشأ اللورد كتشنر ان يتبع الحملة البحرية بحملة برية لأنهُ كان متكلاً كل الاتكال على حدوث ثورة في داخل البلاد عند دخول اسطول انكلترا بحر مرمرا . والآن اشهد ان رأي كتشنر كان رأياً صائباً لأنه لو تمكن الاسطول البريطاني من الدخول الى بحر مرمره لكان ذلك آخر عهدنا بحكومة تركيا الفتاة . اني كنت في تركيا في ذلك الوقت واعلم الحقيقة المجردة

لكن هنالك شخص واحد لم تؤثر فيه اعتقادات القواد والضباط ولا اراجيف المعارضين واشاعاتهم . فلم يقنط ولم يجزع بل ابدى شجاعة يمتدح عليها ورباطة جأش سيذكرها له التاريخ . وذلك الشخص هو انور بطل الدستور

في اواخر كانون الاول واوائل كانون الثاني حينما جاءت الاخبار لأول مرة ان اسطول الحلفاء اخذ باطلاق قنابله على معاقل الدردنيل كان انور يحارب الروس في القوقاس

ترك الاستانة وفي عزمه ان يدحر جيش الروس ويسترجع الولايات العثمانية ولكنهُ عاد اليها في اواخر سنة ١٩١٥! بعد ان تشتت جيشه شذر مذر

رجع من القوقاس شاعراً مماجلبه الانكسار على اسمه من الذل والهوان فلم يظهر كثيراً في الاماكن العامة لانه لم يكن قد تثبت كيف يستقبله الشعب . رأيته اول مرة في حفلة خصوصية جالساً في مركزه المعين وعند انتهاء الحفلة دعاهُ ولي العهد مع باقي اعضاء الحكومة حسب عادته فظنَّ ذلك اعترافاً باخلاصهِ في الخدمة ولو لم يتمكن من النجاح . فكان ذلك مشجعاً قوياً له اعاد اليهِ حماسته الاولى فبدأ يعمل بكل مالديهِ من القوى على تخفيف وطأة الازمة المشتدة حينئذ

اجتمعت بهِ بعد ذلك بقليل واخذنا نتباحث في الاحوال الحاضرة فاظهر لي شدة دهشته لما يبديه الجميع من الخوف والقلق وقال انه آسف لما هيأته ادارة البوليس من المعدات لنقل السلطان والسفراء واتباعهم لأنه كان يعتقد تمام الاعتقاد ان اسطول دول الاتفاق لن يتمكن من اختراق المضايق لانه فتش الحصون بنفسه فوجد انها مستعدة لتدرأ الخطر المنتظر واصر على الدفاع عن الاستانة مهما تطورت الاحوال . ولكن اعتقاد انور لم يكن كافياً لاقناع رفاقه

وقد قال لي بدري بعدئذ انه حينما كان انور في القوقاس واشتدت وطأة الحلفاء على حصون الدردنيل طلب طلعت عقد مؤتمر حربي حضره ليمان فون سندرس والاميرال يوزدم Usedom الالماني وبرونسار رئيس اركان الحرب . فقرر الجميع امكانية اختراق الدردنيل واحتلال العاصمة اما موقف انور فكان معلوماً لديهم ولذلك عزموا ان لا يعبأوا بقوله

في اول آذار (مارس) جاءني بدري يصحبه مدير الامن العام . كان الشعب حينئذ قد بدأ باخلاء العاصمة وصدرت اوامر الحكومة الى المصارف الكبرى لنقل

موالها الى آسيا الصغرى وارسلت اوراق الحكومة المهمة الى اسكشهر وكل الباقين من اعضاء الحكومة والسفراء وممثلي الدول كانوا على اهبة السفر

جاءني بدري اذ ذاك ليتفق معي على مسألة سفري مع السلطان لأني كنت موفد من قبل حكومة الولايات المتحدة الى جلالته

فرفضت ترك الاستانة رفضاً باتاً واخبرته ان المسؤولية الملقاة على عاتقي تقتضي بقائي فيها

قلت لا يتمكن احد من منع المذابح والفظائع في الاستانة الا سفير دولة لاتزال على الحياد وان واجباتي نحو الانسانية تدفعني الى ذلك . فاذا كان مركزي كسفير يقتضي اللحاق بالسلطان اينما توجه فانا استقيل من مركزي وابقى هنا كقنصل شرف

عند ذلك اقترحت عليه ان تؤلف لجنة تأخذ على عاتقها تدبير الشؤون في الازمة الحاضرة فقبل وللحال جلسنا لنقرر مايجب اتمامه

فاخذنا خارطة الاستانة وخططنا المحلات التي يجوز للاسطول البريطاني ان يطلق عليها القنابل حسب قانون الدول ، ثم خططنا الاماكن التي يجب ان تبقى خارج منطقة الخطر . وابرقت حالاً الى واشنطون طالباً من نظارة الخارجية ان تحصل على قبول اميرال الاسطول المهاجم بحكمنا هذا فأتاني جواب برقي بالقبول وهكذا اتممت كل التأهبات ووقف القطاران على المحطة، والسلطان ، وحاشيته والسفراء واتباعهم مستعدون للمسير وبات الكل ينتظرون وصول اسطول الحلفاء

الفصل السابع عشر

معاقل الدردنيل

كان انور كما ذكرت لايزال يعتقد ان اسطول الحلفاء لا يتمكن من اختراق المضايق بناء على ماشاهده في زيارته الاخيرة من منعة الحصون والمعاقل ولذلك سألني ان ازور معاقل الدردنيل فاشاهد منعتها واساعده على تسرية الخوف الذي ساور افراد الحكومة والشعب فقبلت دعوته رغماً عن المخاطر العديدة التي تحف بالذاهب الى مناطق الحرب



انور باشا

تركنا الاستانة صباح ٥ اذار (مارس) سنة ١٩١٥ على سفينة تدعى «يوروك» ورافقنا انور حتى وصلنا الى باندرما ومنها قفل راجعاً الى الاستانة

بين الذين كانوا معنا على الباخرة كان ابراهيم بك ناظر العدلية وحسن باشا قائد الجيش الذي اسقط عبد الحميد والشريف جعفر باشا العربي وفؤاد باشا رجل طاعن في السن شاهد اهوالاً عديدة ولكن بقي قادراً على الانصراف الى اللهو والمجون . كل هؤلاء الرجال كانوا اكبر من انور سناً واكرم محتداً ولكنهم كانوا ينظرون اليه بعين الاحترام والاجلال

ولما وصلت بنا السفينة الى بحر مرمره الهادىء — ولم يكن قد تركنا انور بعد — تمشيت واياه على دكة السفينة نتأمل سكون ذلك البحر الذي طالما مخرت فيه السفن التجارية نتساءل عن اعمال الاسطول البريطاني وهل يكون النجاح حليفهُ ام لا . وكان انور يبدي دهشته للاعتقاد الراسخ في عقول اعضاء الحكومة والسفراء . واردف عبارتهِ بهذه الجملة

— حتى ولو جردّت كل من بلغاريا واليونان جيوشهما علينا لدافعنا عن الاستانة الى آخر رمق

عندنا عدد كبير من المدافع مقدار كبيرة من الذخيرة الحربية والقنابل . وهذه المدافع مرتكزة على الارض الثابتة بينما مدافع الانكليز مركزة على مدرعاتهم التي تتلاعب بها الامواج الهوجاء فلا تتمكن من اصابة الهدف

انا لا يهمني ما يعتقده الغير . لقد درست مسألة الدردنيل درساً دقيقاً وعلمت انه يمكننا ان نقاومهم . ومازلت ناظر حربية تركيا ووكيل قائد جيوشها العام لن اسلّم

اني اتعجب جداً حينما اتأمل بعمل اسطول انكلترا العظيم وتأخذني الدهشة والحيرة . لنسلم معهم جدلاً ولنفرض انهم دكوا معاقل الدردنيل فماذا يفعلون بعد ذلك ؟ نعم يطلقون قنابلهم على الاستانة فيدمروها ولكنهم لا يتمكنون من احتلالها لانه لا يوجد لديهم جيش احتلال ينزل الى البر فيدير الشؤون فيها . فاذا لم يرفقوا اساطيلهم هذه بجيش بري يقعوا في الشرك . قد يتمكنوا من ان يقيموا اسبوع او اسبوعين ولكن حينما تنفد مؤونتهم يضطرون الى الرجوع من حيث اتوا وقبل عودتهم نكون قد حصنا الدردنيل فنقاومهم ثانية ونمطرهم وابلاً من القنابل والقذائف فيندحرون

ذكرت سابقاً ان نابوليون كل بطل انور في الحياة . ومثالهُ الذي ينسج عليه في كل اعماله . كنا نتمشى على الدكة وقد تغلب عليه شعور العظمة فوقف قليلاً ونظر اليَّ وقال بسكون تام :

— سيخلدني التاريخ رجلاً اظهر للعالم انه يمكن قهر اسطول بريطانيا العظيم — زرت انكلترا قبل الحرب بنحو سنتين وتباحثت مع زعماء الحكومة الانكليزية على خططهم السياسية واظهرت لهم خطأهم بالاعتماد الكلي على اسطولهم . قال لي ونستن تشرشل اذ ذاك « ان اسطولنا قادرٌ ان يدرأ عنا كل الاخطار » ورأي تشرشل هذا كان شاملاً كل الدوائر والاندية السياسية هناك

ها قد ارسل تشرشل اسطوله — لنر ما يكون من امره . انا اعتقد ان انكلترا لم ترسل اسطولها لمساعدة روسيا بل ارسلهُ ونستن تشرشل تنفيذاً لوعيدهِ لي

كان انور يكلمني ودلائل العزم بادية في كل كلمة ينطق بها ثم اخبرني ان الجنود اصلحت كل ما دمرته القنابل الانكليزية في الحصون الخارجية

وكان في اثناء كلامه يظهر شدة بغضه للانكليز على انه لم يظهر دلائل مودة نحو الالمان لانهم اهانوه بعدم احترامهم رأيه في مسألة الدردنيل . قال —

« ان الاتراك لا يعبأون بالالمان . ولا الالمان بالاتراك . نعم نحارب معهم لان مصلحتنا تقضي بذلك وهم يحاربون معنا لان مصلحتهم تقضي بذلك . ان المانيا ستساعد تركيا ما زالت تركيا تنفعها ، وتركيا ستساعد المانيا ما زالت المانيا تنفعها » .

وصلنا الى باندرما الساعة الثانية بعد الظهر فنزل انور الى البر واقلعت بنا السفينة الى غليبولي . رست الباخرة في مرفأ غليبولي وقضينا الليل على الدكة لان الطقس كان جميلاً للغاية وفي اثناء بقائنا هنالك كنا نسمع اصوات مدافع البوارج وهي تطلق قنابلها على القلاع المنيعة ولكن لم تكن تلك الاصوات لتقلق اصدقائي الاتراك فكأنهم كانوا جلوساً في وليمة فخرة

نهضنا في الصباح وسارت بنا السفينة نحو جناق قلعة حيث الدردنيل على اضيقهِ فوجدنا عدداً من القواد والضباط الالمان والجنود الاتراك يحمون تلك الحصون ويمطرون تلك البوارج المعادية بقنابلهم المهلكة

استقبلنا جواد باشا قائد جيوش الدردنيل العام وسار بنا الى مكتبهِ الخاصّ .

كان جوادباشا رجلاً راقياً في افكاره وعاداته واخلاقه وكان القواد والضباط الالمان يجلونهُ ويحترمونهُ ويأتمرون بأمره لسعة اختباره ودماثة اخلاقهِ
وبينما نحن سائرون وقفنا امام قطعة من بقايا الطوربيد الذي اطلقتهُ الغواصة الانكليزية على المدرعة التركية مسعودية فدمرتها وارسلتها الى اعماق البحر
نظر اليها جواد وقال — هذا هو الجاني العظيم الذي اغرق مسعودية

كانت قلعة اناضولو حميدية اول قلعة شاهدتها . واول ما طرأ على فكري حينما شاهدتها هو اننا في قلعة المانية لان الضباط والجنود والخدم كانوا كلهم المان
اخذني الكولونل ورل (Wehrle) الى البطريات المختلفة واظهروهو يريني اياها رغبة شديدة في عمله «لانهُ كان قد تعب من المناورات الحربية واشتاق الى الحرب الحقيقية . » وما كان أشد فرحه عندما رأى نفسه امام عدو انكليزي وفي وسعه ان يطلق عليهِ قنبلة حقيقية !

اما مركز قلعة اناضولوحميدية فجميل للغاية. منها يقدر الضابط ان يرى امامهُ مدخل الدردنيل حيث تقف المدرعات حينما بدأت تطلق القنابل على المعاقل والحصون
ورافقني جواد باشا والكولونل ورل الى اهم معاقل الدردنيل — اناضولو حميدية المذكورة آنفاً ودار دانوس وارين كوى فوجدت انها حصون ذات مراكز طبيعية جميلة تساعد المدافع على الحاق ضرر عظيم بالمهاجم — تحتوي الاولى على عشرة مدافع من طراز كروب القديم ويدير شؤونها ضباط المان اكثرهم من ضباط البارجتين غوبن وبرسلو . وفي الثانية مدافع اكبر واحدث وابعد مرمى وكلها من صنع كروب والقائمون بمهام هذه القلعة اتراك . بينهم شاب يدعى حسن اطراه جواد باشا اطراء عظيماً وامتدح شجاعته وبسالته وقال ان المستقبل يخبيء له مجداً باهراً اذا استمر على اجتهاده — ولكن لسوء الحظ لقي حسن حتفه بعد ذلك بأيام قليلة

والقلعة الثالثة ارين كوى — رأيت فيها عجائب الابداع الفني الذي فاق الالمان بهِ جميع الامم . لم يكن في بطرياتها مدافع كافية لتملأ المحال الفارغة . فماذا كانوا يفعلون ليدافعوا عنها
كانوا يضعون المدفع في محل يرى من البوارج وعندما يتأكدون ان المدافع

صوبت نحوه كانوا عاعدة ثيران قوية ينقلونهُ الى محل لا يرى فتطلق البوارج قذائفها ولكن اين الهدف ؟

واظرف من ذلك رفعهم في محل ظاهر قطعة خشب مخروطة على شكل المدفع ومدهونة دهاناً يشبه الوان المدافع وبالقرب منها في محل لا يظهر للعيان مدفع حقيقي. فيطلق المدفع الحقيقي المختفي قنبلتهُ والرجل الواقف عند المدفع الكاذب يحرق كمية من البارود فيتصاعد الدخان في الفضاء فيظن مدفميو البوارج ان ذلك هو المدفع الذي يمطرهم بقنابله ويشويهم بناره فيصوبون اليهِ مدافعهم دون المدفع الحقيقي

ولكن رغماً عما رأيته في هذه القلاع من حسن الموقع الطبيعي ومهارة الضباط واستعداد الكل لبذل النفس والنفيس في سبيل احراز النصر عرفت من الضباط الذين هناك ان المدافع كانت قصيرة المرمى بالنسبة الى مدافع البوارج الضخمة والذخائر عندهم كانت قليلة جداً فلا يتمكنون من الوقوف طويلاً في وجه هجوم بحري عظيم

ورجعنا بعد ذلك الى مكتب جواد باشا فتناولنا طعام الغداء وفي الساعة الثانية صعدت واياه الى المرقب فشاهدنا امامنا بحر ايجه ومدخل الدردنيل وقلعتي سد البحر وقوم قلعه . واذا بهِ قد اخذ المنظار بيده وقال

— اني ارى بارجه تتقدم نحونا . اتريد ان اطلق عليها قنبلة واحدة ؟

— نعم اذا كنت تعدني انك لا تصيبها

ثم رجعنا الى المكتب حيث اجتمعنا بالاميرال يوزدم الالماني والجنرال مرتنز والملحق العسكري النمساوي فاظهر الجميع ثقتهم بمنعة حصون الدردنيل وانه لابد لهم من ارجاع الاعداء خاسرين

وقد علمت بعدئذٍ ان ثقتهم لم تكن وطيدة بل تظاهروا بذلك امامي

ولما انتهيت من زيارة القسم الاسيوي من حصون الدرنيل ذهبت في سفينة صغيرة الى غليبولي وكدنا نذهب ضحية الالغام لولا انتباه بعض الرفاق الذين كانوا يعرفون مواضعها

اما القلاع على الجانب الاوربي من الدردنيل فكانت تشبه تماماً القلاع التي وصفتها من حيث طراز مدافعها ومقدار ما فيها من المؤن والذخائر

الفصل الثامن عشر

تراجع الاسطول البريطاني والنصر اقرب من حبل الوريد

رجعت الى الاستانة مساء السادس عشر من اذار (مارس) وبعد ذلك بيومين هجم اسطول الحلفاء هجومه العظيم فاسفرت المعركة عن غرق ثلاث من السفن المهاجمة وتعطيل سبع اخرى فهلل الاتراك وكبروا لهـذا النصر العظيم وصدرت الاوامر في جميع انحاء المملكة بوجوب اقامة الاحتفالات لهذا الفوز المبين

على ان الرجال المفكرين من الاتراك والالمان لم يحسبوا ذلك فوزاً نهائياً لأنهم كانوا ينتظرون هجوم الاسطول ثانية في صباح اليوم التالي

والظاهر ان انكلترا لم تشأ ان تضحي باكثر مما ضحت به في سبيل افتتاح الدردنيل فلم تعد الـكرة على القلاع التي كانت قد اصبحت في حالة يرثى لها من الضعف لقلة الذخيرة والمؤن

وبعد رجوعي من الاستانة الى الولايات المتحدة كثيراً ما سألني اصدقائي السؤال الآتي : —

لو اعاد اسطول الحلفاء الكرة صباح اليوم الثاني اتظن انه كان يتسنى لهم ان يخترقوا الدردنيل ويحتلوا الاستانة ؟

هذا سؤال لا اقدر ان اجيب عليه لقلة معرفتي الفنية في اساليب الدفاع والهجوم . ولكن ذكرت سابقاً آراء كل الرجال الفنيين الذين اجمعوا — عدا انور — انه بوسع انكلترا ان تفتح الدردنيل اذا شاءت ان تضحي بالعدد الـكافي من بوارجها

وليفهم القارىء ان ما سنذكره فيما يلي ليس من آرائي الشخصية بل هي خلاصة آراء القواد الالمان والاتراك الذين كان لهم علاقة بالدفاع

لما دار الحديث بيني وبين انور على دكة اليوروك قال لي انور اذ ذاك — عندنا عدد كبير من المدافع ومقدار عظيم من المؤن والذخائر الحربية

ولكن نظرة واحدة الى حقيقة الواقع تدلنا على ان ذلك لم يكن ممكناً لان تركيا كانت مفصولة عن حلفائها والقطار الذي يسير من برلين الى الاستانة

لم يتمكن من نقل مواد حربية لانه يمر في ارض سربيا وبلغاريا ورومانيا وكل من هذه الممالك لم تكن قد صارت تحت سيطرة الالمان حينئذ

فلنفرض الآن ان الاسطول اعاد الكرة صباح التاسع عشر من اذار (مارس) فما هي النتيجة يا ترى ؟

لا مشاحة ان البطريات في معاقل الدردنيل كانت في اشد الحاجة الى القنابل لأنهم كانوا قد استعملوا تقريباً كل مالديهم منها في اليوم السابق

كنت في ذلك الوقت قد استأذنت لاحد مراسلي الصحف الاميركية ان يزور ساحة الحرب في الدردنيل . فذهب اليها وفي مساء الثامن عشر اي بعد انتهاء الهجوم الكبير دار بينه وبين الجنرال مرتنز الحديث التالي . — قال الجنرال

— نحن ننتظر هجوم الاسطول ثانية غداً وان فعل ذلك فلا نتمكن من ان نقاوم اكثر من ساعات معدودة

وعلم ذلك المراسل من مصدر آخر انه لم يبق في قلعة اناضولو حميدية بعد المعركة الكبرى الا سبع عشرة قنبلة وقلعة كيليد البحر على الشاطىء الاوروبي لم يكن فيها سوى عشر قنابل فقط . قال الجنرال ايضاً

— انصح لك ياحضرة المراسل ان تنهض باكراً وتذهب الى التلال البعيدة لاننا سنفعل كذلك ايضاً

في صباح التاسع عشر صدرت الاوامر للمدفعيين ان يحاربوا حتى آخر قنبلة لديهم ثم يتركوا المدافع والقلاع ويطلق كل ساقيه للريح

فاذا تم للاسطول الفوز في القلاع الخارجية القوية تهون المصاعب التي تقوم في وجهه فلا يبقى لديه الا القلاع الداخلية الضعيفة والالغام المنتشرة في المضيق والطراد غوبن الذي لايمكنه ان يقف في وجه الاسطول البريطاني وبين بوارجه كوين اليزابث

وكان انور يعتقد انه لو تمكن اسطول انكلترا من اختراق الدردنيل واحتلال الاستانة لايلبث ان يضطر الى اخلاء المدينة اذا لم يرفقوا الحملة البحرية بجيش بري كبير

ولكن انا اعتقد انه لو رجع الاسطول البريطاني وتمكن من الوصول الى الاستانة لتم له مايريد لأن الحالة السياسية في البلاد كانت مضطربة جداً وموقف حكومة الاتحاديين كان حرجاً للغاية

كان جمال قد الف حكومة شبه مستقلة في سوريا وحاكم ولاية ازميركان يعمل كل مايراه موافقاً غير معتبر الاوامر الصادرة من الاستانة والحج عادل احد شجعان الاتراك كان مقيما في ادرنه يدس الدسائس لتأسيس حكومة تعنو له وتأتمر بأمره ، وبلاد العرب كان قد اعلنت استقلالها تحت سلطة الشريف حسين وسكان العاصمة كانوا يضرعون الى الاله لكي يحبو المهاجمين بنصر سريع

فهم طلعت الحالة تماماً فاعدَّ كل شيء لكي يلوذ بالفرار قبلما يدهمه الخطر لكن اسطول الحلفاء لم يرجع !

بعد ذلك باسبوع تقريباً اتيت الى السفارة الالمانية فالتقيت هناك بفون درغلتز باشا «مدرب الجيوش» الذي كان حاكماً في البلجيك

جاء هذا الرجل المعروف الى الاستانة ليهدي جلالة السلطان وساماً من القيصر اعترافاً بما احرزتهُ جنوده من النصر في الدردنيل

جلسنا نحن الثلاثة ونغنهايم وفون دغلتز وانا في قاعة السفارة نبحث في الحالة الحاضرة. وما كانت اشد اعجاب السفير والقائد لما كانت تنشره الحكومة البريطانية عن حقيقة خسائرها في معارك الدردنيل

فقلت لهم ان اتباع تلك الخطة خير من غيرها ونحن الاميركيين نفضلها ايضاً فلم يقتنعا من ذلك بل قالا ان هنالك سبباً خفياً يدفع انكلترا الى عملها ذاك وبعد وقت قصير اقر رأيهما على ان السبب الدافع انكلترا الى ذلك هو — رغبتها في ان تظهر للحكومة الروسية انها بذلت وسعها في سبيل مساعدتها — وهي في الحقيقة لا تريد ان تمد اليها يد المساعدة المخلصة

وظهرت نتيجة انكسار الحلفاء في الدردنيل في اواخر ١٩١٥ واوائل ١٩١٦ حينما ضمت بلغاريا قوتها الى قوى الدول المركزية واجتاحت الجنود الالمانية بمساعدة بلغاريا اراضي سربيا وتمكنت المانيا من انجاد حليفتها تركيا بالمال والرجال والذخائر

وهكذا اصبحت معاقل الدردنيل بعد ذلك من اعظم معاقل الارض منعة وقوة وانا اعتقد ان كل اساطيل الارض لا تتمكن الآن من افتتاحها عنوة

الفصل التاسع عشر

الحكومة والاجانب

في الثاني من شهر ايار (مايو) سنة ١٩١٥ ارسل اليّ انور رسالة سألني ان ابعث بها الى حكومتي انكلترا وفرنسا

قبل ذلك بنحو اسبوع كان الحلفاء قد ارسلوا حملة برّية الى الدردنيل وانزلوها في شبه جزيرة غليبولي لانهم تحققوا اخيراً ان لا فائدة من حملة بحرية مجردة وكانت اكثرية ذلك الجيش من سكان اوستراليا وزيلاندا الجديدة

اخبرني انور ان بوارج الحلفاء كانت قد تناست كل ما سنّتهُ قوانين الدول. واخذوا بتصويب قنابلهم الى المدن والقرى غير المحصنة فقتلوا بذلك كثيرين من الرعايا المسلمين

ولذلك سألني انور ان اطلب الى حكومتي انكلترا وفرنسا ان تصدرا الاوامر الى اميرال الاسطول لكي يضع حداً لعمل فظيع كهذا . وقال انهُ قد عزم ان يجمع كل الرعايا الاجانب ويرسلهم الى ساحة الدردنيل ويفرقهم بين القرى المسلمة . فاذا استمرّت البوارح على اطلاق قنابلها على تلك القرى تكون قد عرضت اهلها وابناء وطنها للتهلكة . وكان في ذلك الوقت في الاستانة نحو ٣٠٠٠ اجنبي واكثرهم كانو قد ولدوا في تركيا ونشأوا فيها فتعلموا عادات الاتراك وآدابهم

بحثت عن مبلغ الصحة في تلك الاخبار التي بنى انور عزمه الاكيد عليها فوجدت ان الحلفاء لم يطلقوا قنابلهم على القرى المأهولة بل صوبوها نحو غليبولي التي كانت مركز قيادة جيش الدردنيل ولذلك لم يكن اسطول الحلفاء مخالفاً للقوانين الدولية ولا للشرائع الانسانية المتعارفة

اما الاشاعات التي قالت انهُ قتل عدد كبير من سكان تلك النواحي فكان مبالغ فيها لانه لم يقتل الاّ عدد قليل جداً بواسطة بعض القنابل التائهة

بحثت عن هذه المسألة وعزم انور على نقل الاجانب الى ساحة الوغى واخيراً قرّ الرأي بعد استشارة ذوي الآراء الراجحة ان ارفع اعتراضاً قوي اللهجة على ذلك العمل وللحال ركبت السيارة وذهبت الى الباب العالي

كان مجلس النظار مجتمعاً فخرج انور لملاقاتي ولما اخذ يتكلم عن هجوم الانكليز رأيت الغضب يبدوا في كل كلمة يفوه بها . قال . — آه من هؤلاء الانكليز الجبناء. جربوا ان يخترقوا الدردنيل فباؤا بالذل والخسران . وهاهم يثأرون لانفسهم . ان قنابلهم تدمر قرانا ومستشفياتنا وتهلك اخواننا واهلينا وانكي من ذلك انهم يقفون حيث لا تطالهم قنابل مدافعنا القصيرة المرمى . ليس لنا اسطولا يقابلهم ولذلك قد عزمنا على نقل كل الرعايا الانكليز والفرنسيين الى غليبولي فيقتلونهم اذا شاؤا ان يقتلوا رجالنا

فاجبتهُ انه يحق له ان يفعل ذلك اذا كان الحلفاء قد فعلوا ذلك حقيقةً وأظهرت له ان الاشاعات التي وردت عليهِ كان فيها إغراق ومبالغة — ولكنهُ لم يشأ ان يفهم ذلك بل اصرّ على عزمه فقلت له

— ان ما عزمتم على اتيانه عمل وحشيّ همجيّ لانهُ يحق لاسطول الحلفاء ان يطلق قنابله على مركز عسكري كغليبولي

لكنهُ لم يلن ولم يتأثر فعلمت ان ما عزم ان يفعلهُ لم يكن مبنياً على براهين واضحة واسباب ظاهرة بل على ما او حته اليهِ عواطفه حينما شعر انهُ بوسع الجيش الانكليزي ان يجتاح شبه جزيرة غليبولي وان يحتل الاستانة . وبعد اجتماع طويل تمكنت ان احصل منهُ على الوعود الآتية

—(١) تأجيل نقل الاجانب ليوم الخميس — كان ذلك يوم الاحد —

—(٢) استثناء كل الاولاد والنساء

—(٣) لاينقل ايّ انكليزي او فرنسي اذا كان يعمل في المعاهد الاميركية .

وهذه كانت عبارته الاخيرة : —

— يجب على كل الباقين ان يذهبوا . وسنضع عدداً من الاجانب على كل نقالة تركية حتى تضطر غواصات العدو ان لا تدمرها

وحينما رجعت الى السفارة وجدت ان تلك الاخبار كانت قد انتشرت فاحدثت قلقاً عظيماً بين كل الذين لهم علاقة بذلك . فاحتشدت الجماهير فى قاعة السفارة الاميركية يطلبون الي ان ابذل وسعي في سبيل مساعدتهم واراد غيرهم ان استأذن لهم الاعذار خصوصية واقترح غيرهم اقتراحات عديدة ولكن اكثرها لم يكن عملياً فتركت ذلك حتى أرى كيف تتطور المسألة في ادمغة أولي السلطة والامر

وفي اليوم الثاني اخذ بدري بك بتوقيف كل الرجال الانكليز والفرنسويين وكان بين الذي بحثت معهم في سبيل حل تلك المعضلة من — اقترح عليّ ان اطلب مساعدة سفيري المانيا والنمسا لعلهم يمدون يد المساعدة

كنت قد طلبت مساعدة ونفوذهم في مسائل عديدة لكنه لم يجبني الى طلبي ولكن قلت يحسن بي ان اعطيه فرصة لاتمام عمل يذكر فيشكر

فذهبت اليه في الساعة العاشرة من ذلك المساء وطلبت اليه ان يساعدني مظهراً له ان يصعب على العالم ان يفهم ان ليس لليد الالمانية دخلاً في ذلك العمل الفظيع الا اذا رفع السفير الالماني احتجاجاً عليه . ولكنهُ رفض ذلك رفضاً باتاً. بقيت معهُ نحو ساعة ونصف ساعة وكلما جربت ان اعود الى البحث في مسألة الرعايا الانكليز والفرنسويين ونقلهم الى غاليبولي كان يغير سياق الحديث . وهاك قسما من حديثنا

—كنت اقول

— ان عمل الاتراك يسيء سمعة المانيا

فيجيب

— الا تعلم ان الجنود الانكليزية في صحراء سينا بقيت مدة طويلة بدون طعام وماء فهجموا اخيراً على العربان ليحصلوا على مايسدون به رمقهم

وقبل ان يتم عبارته كنت اقاطعهُ قائلاً — ولكن مسألة غليبولي — ان الالمان في العاصمة يقولون ان ذلك مضرٌّ بهم

فيجيب . ان الحلفاء قد انزلوا في غليبولي ٤٥٠٠٠ جندي قتل منهم حتى الآن نحو ١٠٠٠٠ وعن قريب سنطرد الباقين . وبقية الحديث على هذا المنوال

فشلت في احراز مساعدتهِ . ولذلك عزمت ان اذهب الى رصيفهِ بالافيسيني لانه كان ارق قلباً واسمى عواطف وشعوراً

جئت الى بالافيسيني واطلعته على حقيقة الحال فتأثر جداً لذلك العمل الهمجي ووعدني ان يكلم الصدر الاعظم بذلك الشأن ، لكن علمت ان ذلك لايجدي نفعاً لان سلطة الصدر الاعظم كانت اسمية فقط . فسألته ان يبذل جهده ليقنع انور وطلعت حكام تركيا الحقيقيين فرفض ذلك لانه لم يكن له علاقة الا مع وكيل

السلطان الذي كان موفداً اليه . وفعلاً تباحث مع سعيد حليم باشا بذلك الشأن ولكن ذهبت اتعابه ادراج الرياح

اماو نغنهايم فلم يشأ ان يرفض طلبي بتاتاً فذهب الى سعيد حليم باشا وطلب اليه ان يبذل جهده في مساعدة السفير الاميركي . على ان عمله ذاك لم يكن الا من قبيل التظاهر بالمساعدة لأنه لو اراد ان يساعدني حقيقة لتمكن من اقناع انور وطلعت على تغيير خطتهم

وكان في الاستانة رجل خطير ذو تأثير كبير في الاندية السياسية وهو كولوشف Kolocheff سفير بلغاريا . فلما علم مسيو كولوشف بمسألة نقل الرعايا الانكليز والفرنسويين الى غاليبولي اتى الي وعرض عليَّ مساعدته فاتفقنا ان يذهب الى انور ويرفع احتجاجه اليه

في تلك الاثناء كان بدري قد ارسل رجاله واعوانه لالقاء القبض عليهم كل الرجال الانكليز الفرنسويين وعين موعد سفر القطار صباح الخميس

وافى نهار الاربعاء واذا بكل الاجانب من نساء واولاد ورجال قد ملأوا سفارتي . شعرت اذ ذاك بحرج الموقف وكنت قد بذلت جهدي فلم انجح لكن عزمت على ان اجرب ثانية لعلي افلح . فاخذت التلفون ودعوت انور طالباً منه ان يعين وقتاً لمقابلته . فاجاب انه يفضل ان يراني نهار الخميس — ولكن ما نفع ذلك والقطار يكون قد سافر حاملاً ضحايا الظلم والاستبداد — فأجبت — يجب ان اراك اليوم

جرب ان يعتذر بأنه مشغول قائلاً اظن انك تريد مقابلتي لتبحث معي في شأن الانكليز والفرنسويين ولكن ذلك لا يجدي بك نفعاً فلقد عزمنا عزماً نهائياً . لقد صدرت الاوامر والقطار يجب ان يسافر غداً

ولكن اصررت على مقابلته في ذلك اليوم . فجرب ان يعتذر ثانية بأنه مشغول لأن اعضاء الوزارة كانوا عازمين ان يجتمعوا اجتماعاً مهماً لا يقدر ان يتخلف عن حضوره

ولكن نظرت الى حولي فوجدت نساء تبكي واولاداً تصرخ وشيوخاً كاسفي البال مطأطأي الرؤوس فشعرت بقوة داخلية تدفعني الى المثابرة وطرأ على خاطري فكر فأخذت التلفون ثانية وقلت

اذا كنت لا تقدر ان تقابلني فسأجيء الى حيث يجتمع الوزراء فاباحثهم كوزارة

في هذا الموضوع. أتظن ان الوزارة التركية تحاول ان ترفض مقابلة السفير الاميركي؟ فشمرت بتأثير هذا الاقتراح في أنور واذا بهِ يجيب — تعال الى الباب العالي في الساعة ٣٠ : ٣ بعد الظهر فنتقابل هناك

وصلت الى المحل المعين في الوقت المعين فقيل لي ان السفير البلغاري كان مجتمعاً بأنور . فانتظرت في القاعة لأني علمت موضوع البحث وبعد قليل خرج مسيو كولوشف فقرأت في اساريره آي الفشل والخيبة فقال

— لا رجاء منهم لقد عزموا نهائياً على اتمام ذلك العمل الفظيع

دخلت اذ ذاك الى القاعة حيث كان أنور وبدأنا نبحث في مسألة أولئك الاجانب المساكين ولكنهُ قال لي قبل ان نبدأ في الكلام أن لا نفع من المشاحنة الطويلة لأن عزمهم ثابت لابد من تنفيـذه . فأصررتُ على المقاومة وأظهرتُ مايكون لذلك العمل من التأثير في العالم المتمدّن وخصوصاً في الاندية الاميركيـة بعد كل ما أتوه من حسن المعاملة نحو الاجانب . لـكنهُ اصرّ على انّ عمارة الحلفاء البحرية كانت قد دمرت مدناً غير محصّنة وقتلت عدداً من النساء والرجال والاولاد . . فجرّبت أن اظهر لهُ ان مايعتقده خطأ ولكن عبثاً كنت احاول ذلك

فسألتهُ اذ ذاك اذا كانت نصائحي الماضية قد جرّت عليهم اضراراً ما فأجاب سلباً . فنصحت لهُ اذاً ان يتبـع مشورتي الآن لاني اعتقدُ ان عملهم ذلك كان خطأً عظيماً . فقال أنور

— لـكني أصدرت الأوامر ولا أقدرُ ان الغيها واذا فعلتُ ذلك أخسرُ مقامي الرفيع في الجيش . ها قد سألتني زوجتي ان أعفو عن أحد خدامها من الجندية فرفضت وطلبَ اليَّ الصدرُ الاعظم ان اعفو كاتبهُ الخاص من بعض الواجبات فرددت طلبه . لم اعتد ان الغي اوامري ولن أفعل ذلك . فاذا كنت قادراً ان تريني طريقـة اتمكن ان اساعدك بها دون الغاء الاوامر فأنا مستعد لخدمتك بكل اخلاص . فقلت :

— نعم اتمكن . انا اعتقد انـك اذا لم ترسل كل الرجال الانكليز والفرنسويين لاتكون قد الغيت اوامرك فتقدر ان ترسل عدداً قليلاً منهم وفي نفس الوقت تحفظ مركزك الرفيع في الجيش

فشعرت ان انور قد رضي عن ذلك الاقتراح فقال : كم رجل تعني ؟
فعلمت اني قد انتصرتُ عليهِ لما سأل ذلك السؤال فأجبت :
— انا اقترح ان ترسلوا عشرين انكليزياً وعشرين فرنسوياً - اي اربعين رجلاً فقال :
— دعني ارسل خمسين فقلت
— لا نختلف على عشرة اشخاص . ارسل خمسين ولكن يجب ان تدعني انتخبهم فأجاب
— كلا ياحضرة السفير. انك خلصتني الآن من ارتكاب خطأ فادح أفلا تدعني أخلصك من ارتكاب خطأ آخر . اليس لك اقتراح غير هذا ؟ فقلت
— خذ الشبان لأنهم اقدر من سواهم على تحمل المشقات والمصاعب. فصادف هذا الاقتراح عنده قبولاً حسناً ولكنهُ طلب الي ان نترك امر انتخابهم لبدري
فشعرت اذ ذاك ان كل ما قد بنيتهُ قد تهدم لاني كنت قد درست اخلاق بدري وطباعهُ وعرفت شدّة بغضهِ للاجانب وعلمت انهُ اذا علم بنجاحي قد يستعمل ماله من النفوذ فلا يتم الاوامر حسبما اشتهي فسألت انور ان يدعوه ويعطيهِ التعليمات اللازمة بحضوري
دخل بدري ولم يكد يسمع بالتدابير الجديدة مع السفير الاميركي حتى بدت على وجهه علامات الغضب فقال:
— كلا لا اقبل بالشبان فقط . يجب ان ارسل بعض الاعيان . لكن انور بقي على وعده فأمره ان يرسل خمسين شاباً فقط
علمت اذ ذاك انهُ لابد من الاتفاق مع بدري على باقي الامور فسألتهُ ان يركب معي الى السفارة الاميركية فنتناول الشاي معاً ونهيء معدات السفر لاولئك المنكوبين . اما بدري فشعر أنهُ بدعوتي اياه لمرافقتي الى السفارة قد حصل على فخر عظيم ولذلك لم اجده شديداً متصلباً كعادتهِ
وصلنا الى السفارة فوجدنا الجماهير منتظرة نتيجة المقابلة مع انور ولما اخبرتهم اننا اتفقنا على ارسال خمسين شاباً فقط اغرورقت عيونهم بدموع الفرح والسرور وبالجهد تمكنت ان اتخلص من قوم ارادوا ان يظهروا شكرهم فاستحسنوا كل واسطة في سبيل ذلك حتى ان بعض الشيوخ هجموا علي وقبلوني

وحينما اجتمعت مع بدري في المكتب قال :

— ألا تسمح لي ان ارسل معهم بعض الاعيان ؟ فأجبت

— اسمح لك برجل واحد فقال

— ألا تسمح لي بثلاثة ! فأجبت

— خذ كل الاعيان الذين لايزيد عمرهم على الخمسين

ولكن ذلك لم يرق لديه لانه لم يوجد بين الاجانب في الاستانة أعيان دون الخمسين . ولكن كان هنالك مرسل انكليكاني يدعى الدكتور ويغرم الذي الح عليّ ان اسمح له بالذهاب مع المنفيين لكي يعزيهم ويؤاسيهم . فنظرت الى بدري وقد جالت هذه الافكار في خاطري وقلت

— لا اسمح لك الا بالدكتور ويغرم . ولما لم ير مناصاً قبل . ثم تبرع مستر هفمن فيليب مستشار السفارة اذ ذاك ومندوب حكومة الولايات المتحدة في كولومبيا الآن ان يرافق المنفيين فيساعدهم على قضاء حاجاتهم . فاستأذنت له ولصحافيين آخرين ان يرافقوا اولئك الشبان .

انبثق الفجر وقد تجمع على المحطة جمهور غفير جاءوا لكي يودعوا اقاربهم المسافرين ولما ازفت الساعة المعينة قرع الجرس فصفرت القاطرة وتحركت عجلات القطار الى الامام فسار بهم الى ساحة الوغى حاملاً اسرى حرب يستحقون كل معاملة طيبة

رجعت الى بيتي منهوك القوى من التعب العقلي والجسدي ولم اكد اصل اليهِ حتى علمت ان السفير الالماني بانتظاري فقابلتهُ وبدأنا نتباحث في الشؤون العمومية ثم اقترب مني وطلب اليّ اذا برق الى واشنطون بأنهُ ساعدني على تخفيف عدد الاجانب المنفيين الى خمسين . ولكن نظراً لما حدث بيننا من قبل بهذا الصدد رفضت طلبهُ فقال :

— على الاقل ابرق وأخبرهم اني لم احرض الاتراك على اتباع خطة اشد من ذلك .

فرفضت ذلك ايضاً وفعلاً ارسلت برقية مطولة الى نظارة الخارجية في واشنطون وأطلعتهم على حقيقة الحال . وبعد ذلك بيومين دعاني بالتلفون وبدأ يكلمني وآثار الغضب ظاهرة في كل كلمة من حديثه لأن حكومتهُ كانت قد ابرقت اليه واخبرته عن برقيتي الى واشنطون بخصوصه . فقلت له انه اذا اراد ان يعرف في الدوائر

السياسية كرجل يحب المساعدة في امثال هذه الامور فالافضل له ان يحول قوتهُ ونفوذه حيث يكون لها التأثير الاعظم

ذهب المنفيون وقاسوا في غليبولي من العذاب اشكالاً والواناً على انه لم يمض اكثر من اسبوع حتى بدأت افاوض انور بأمر ارجاعهم

في تلك الاثناء كان السير ادورد غراي ناظر خارجية انكلترا قد ارسل الى نظارة الخارجية في واشنطون يسألها ان تبرق اليَّ لاخبر انور ورفاقه بأن الحكومة الانكليزية ستلقي عليهم شخصياً مسئولية سوء معاملة الاجانب . ذهبت الى انور في ٩ ايار واخبرته عن تلك البرقية ولم اكد اتم قراءتها حتى زمجر وهدر لأنهُ لم يعرف آداب السلوك وصاح : — انهم لن يرجعوا . سأتركهم هنالك حتى ينتنوا . ليقتالني اولئك الانكليز اذا تمكنوا مني

شعرت اذ ذاك ان افضل طريقة للتأثير عليهِ وعلى رفاقه هي طريقة الاقناع فأخذت الاطفهُ حتى سكن ثائر غضبه فتركته وانصرفت

قضي المنفيون اكثر من اسبوع في غليبولي ثم رجعوا الى الاستانة لان الاتراك كانوا قد نقلوا مركزهم الحربي منها . وكلهم بصحة حسنة . . .

***

كنت قد ذكرت قبلاً ان انور وطلعت كانا قد وعدا ان يعاملا الاجانب برفق وتؤدة . ولكن حدث في الاستانة اثناء وجودي فيها عدة حوادث تدل دلالةً واضحة على حقيقة اخلاق التركي . سأذكر منها الحادثة الآتية التي تتجسم فيها عادات الاتراك ودسائس الالمان

كنت في احد الايام في مكتب طلعت نتباحث في بعض الشؤون واذا بجرس التلفون قد قرع فنهض طلعت اليهِ ثم ادار وجهه نحوي وقال انهم يدعونك . اخذت السماعة بيدي واذا بأحد كتاب السفارة يخبرني ان البوليس قبض على السير ادون بيرز Edwin Pears واودعوه السجن . كان السير ادون بيرز رجلاً قد ناهز الثمانين من العمر درس فن المحاماة واشتهر فيهِ وكتب مقالات عديدة والف كتباً جمة عن تاريخ الشرق وسياسة دوله وكان طلعت وبدري قد وعدا منذ ابتداء الحرب ان لا يمساه بسوء . فنظرت اذ ذاك الى طلعت وقلت

— اهذه قيمة وعودكم ؟ أليس لـكم عمل افضل من القاء القبض على رجل فاضل جليل القدر مثل السر ادون ؟ فضحك طلعت وقال

— لا تغضب . لقـد اودعوه السجن منذ بضع ساعات فقط وسأصدر الامر باخراجهِ . فأخذ التلفون وسأل عن بدري ولكن هذا لم يشأ ان يظهر نفسهُ لانهُ حنث بوعده فلم يجب

علمت ذلك فقلت لطلعت

— اني سأبقى هنا حتى اعرف مكان بدري . لكن طلعت عبثاً حاول ان يحظى بهِ . فاخذت التلفون ودعوت احد كتابي وسألتهُ ان يفتش عن بدري ويقول له بأني سألقي القبض على طلعت في مكتبه حتى اعلم ان السر ادون اعتق من سجنه . لم يمض بضع دقائق الا وقرع الجرس ثانية فأذا بهِ بدري يتكلم . فسألت طلعت ان يقول له باني سأذهب في سيارتي الى السجن وأخرج السر ادون بنفسي فأجاب بدري

— لا تدعه يفعل ذلك لان عمله هذا يجعلني مضغة في افواه الجميع فقلت

— حسناً سأنتظر حتى الساعة السادسة . وفعلاً أطلقوا سراحه في الوقت المعين .

وفي صباح اليوم الثاني جاء السر ادون الى مكتبي فشكر لي اهتمامي بأمره وقال في عرض الكلام ان السفير الالماني بذل جهده في سبيل اعتاقي فتعجبت اذ لم اعهد في ونفنهايم مثل هذه المروءة . وحدث انهُ في مساء ذلك اليوم التقيت بونفنهايم في المأدبة التي كانت تقيمها زوجتي فسألتهُ اذا كان حقيقة قد استعمل نفوذه في سبيل اعتاق السر ادون . فأجابني وقد اخذ منهُ العجب كل مأخذ :

— ماذا ! كيف أساعده وانا الذي عملت على سجنه . فسألتهُ لماذا فعلت ذلك فأجاب

— لانهُ كان في سنة ١٨٧٦ معاكساً لسياسة الحكومة التركية وكتب مقالات ضافية في جريدة الديلي نيوز عن الفظائع البلغارية

هذه هي تذكارات الالمان !

الفصل العشرون

بلغاريا في المزاد

لم يكن انكسار اسطول الحلفاء امام معاقل الدردنيل ليبت الحكم في مسألة الاستانة لأن اولي الامر شعروا انه لابد للحلفاء من تجهيز حملة برية يرسلونها على طريق الاستانة التاريخي اي من جهة الشمال الغربي فيكون خطرها كبيراً بعد ان يستميلوا بلغاريا اليهم

وكنت مع احد الالمان ذوي النفوذ في تركيا في اواخر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نتباحث في مسألة الدردنيل وهجوم الحلفاء وموقف بلغاريا فقال :

— اننا لا نتمكن من صد هجمات الحلفاء في الدردنيل مالم تساعدنا بلغاريا

اي ان الالمان وغيرهم كانوا ينتظرون نجاح حملة الحلفاء البرية والذي جعلهم يوجسون خيفة هو عدم تأكدهم من الخطة التي عزمت بلغاريا على اتباعها . فاذا تم للحلفاء مايشتهون وساعدتهم بلغاريا في ذلك او على الاقل ان لم تساعد اعداءهم يتمكنون من اختراق الدردنيل ومساعدة روسيا فيقصر اجل الحرب وينتهي بنصر اكيد للحلفاء . وكل من درس هذه الحقيقة المهمة امام الخريطة الجغرافية يتأكد ذلك

بلغاريا هي الدولة الوحيدة المجاورة لتركيا في اوروبا وبلغاريا في ذلك الوقت كانت قادرة على تجنيد ٥٠٠ الف مقاتل بكامل العدد والذخائر والمؤن فلو تمكن الحلفاء من اغراء بلغاريا على مساعدتهم لزحف ذلك الجيش الى الاستانة دون ان يلقى مقاوم لأن جيوش تركيا كانت مشتتة في غليبولي والقوقاس وسيناء وفضلاً عن ذلك لم تتمكن تركيا من ان تعتمد على حليفتها المانيا لتنجدها بالذخائر والمؤن لان الخط الحديدي الذي بينها وبين الاستانة يمر في قلب بلغاريا التي كانت لم تزل مطمح انظار الفريقين . والعكس بالعكس . اي اذا تمكنت الدول المركزية من اغراء بلغاريا على مساعدتهم يسهل عليهم ان يجتاحوا سربيا حيث يمر قسم من ذلك الخط الحديدي فيتم الاتصال بين تركيا وحلفائها وتصبح المانيا قادرة على امدادها بالمال والرجال والمدافع وغيرها . فمن هذا يتضح لنا اهمية موقف بلغاريا تجاه سير الحرب الاوروبية الكبرى

كثيرون يعتقدون ان الاتفاق بين المانيا وبلغاريا كان قد تم قبل نشوب الحرب في ١٩١٤ اما انا فلا اعلم الحقيقة المجردة ولكن اعتقد ان الاتفاق بين حكومتي فردينند وغليوم لم يبرم قبل ابتداء الحرب سنة ١٩١٤ واعتقادي هذا مبني على مارأيتهُ وسمعتهُ ولاحظتهُ في الساسة الالمان والاتراك وماكانوا يبدونهُ من الوجل لدى موقف بلغاريا المتقلب واذكر تماماً ان الاعتقاد بعزم بلغاريا النهائي على الانضمام الى الحلفاء بقي سائداً مدة ليست بالقصيرة في الاستانة (١)

في اواخر آيار (مايو) ١٩١٥ وردت الاخبار ان المسيو كولوشف السفير البلغاري في الاستانة كان قد انبأ رئيس كلية روبرت بأن التلاميذ البلغار لا يتمكنون من البقاء حتى نهاية السنة المدرسية اذ يتحتم عليهم ان يرجعوا الى بيوتهم قبل الخامس من حزيران (يونيو) . وورد الخبر ذاته الى رئيسة كلية البنات الاميركية

لم يكد ينتشر هذا الخبر حتى اخذ الكل يتحدثون عن موقف بلغاريا السياسي. هل يدل عملها هذا على انها ستدخل الحرب — واذا كانت قد عزمت ان تفعل ذلك فالى اي الجانبين تنضم ؟

كثرت الاشاعات وتعددت الآراء وتباينت المذاهب فكنت تسمع اليوم مثلاً ان بلغاريا قد قررت ان تنضم الى الحلفاء

وفي اليوم الثاني تسمع عكس هذا الخبر تماماً اي انها عزمت ان تنضم الى الدول المركزية

واخيراً شاع الاعتقاد القائل ان بلغاريا ستنضم الى الحلفاء وانتشرت هذه الاخبار بسرعة البرق في كل انحاء العاصمة

مضى على ذلك مدة لم التق في اثنائها بمسيو كولوشف . ولما رأيته سألته عما تنويه حكومته بنقل كل التلاميذ والتلميذات المقيمين في العاصمة . فاجاب ان الحكومة البلغارية فعلت ذلك لتقوي نفوذها ومركزها في الموقف السياسي العصيب فتشعر المانيا وتركيا انه لا يزال للحلفاء فرصة لاستمالتها ولكنه اكد لي ان بلغاريا كانت تباع في المزاد فالذي يدفع الثمن الاعلى يشتريها

من النقط المهمة في السياسة البلغارية هو اهتمامهم باسترجاع مكدونيا التي

(١) وفي مذكرات طامت باشا الملحقة بهذا الكتاب ما يؤيد هذا القول

ارافوا لاجلها دماء ابنائهم في الحرب البلقانية الاولى ثم اضطروا ان يتنازلوا عنها لسربيا باشارة من الدول

تلك البلاد كانت بلغارية اللغة والعادات والسكان والرأي الشائع في دوائر بلغاريا السياسية هو انهُ لا توطد اركان السلم في البلقان مالم ترجع تلك البلاد لمستحقيها

على ان حكومة بلغاريا لم ترض ان يعدها فريق من المتحاربين فقط باسترجاعها بل اصرت على احتلالها حالما تدخل الحرب

وعلمت من بعض المصادر التي يوثق بها ان قيادة الجيش البلغاري كانت قد هيأت خطة للزحف على الاستانة واحتلالها وكان يقتضي لتنفيذ تلك الخطة نحو ثلاثة وعشرون يوماً لكن حكومة بلغاريا لم تكتف بالوعد فقط بل ارادت الاحتلال العاجل

كل يعلم حراجة موقف الحلفاء . كانت مكدونيا الآن تخص السرب واليونان وبالطبع هاتان الدولتان لم تتنازلا عنها الى بلغاريا فاذا اصر ساسة الحلفاء على سربيا بتسليم تلك البقعة لبلغاريا ثمناً لانضمامها اليهم قد تعقد سربيا صلحاً منفرداً مع الدول المركزية . وزد على ذلك فان حكومة بلغاريا لم تقبل ان تعطي سربيا مقاطعة البوسنه والهرسك تعويضاً لها عن مكدونيا ولذلك نشأ في البلقان مصاعب جمة ومشاكل عديدة

في ذلك الوقت كان في الاستانة رجل يدعى بول فيتز Paul Weitz مراسل اعظم الصحف الالمانية فرانكفرتر زيتونغ . قضى هـذا الرجل نحواً من ثلاثين سنة في تركيا فاصبح عارفاً باحوال البلاد وصار ثقة في تاريخها وسياستها . وكان لهذا الرجل الخبير منصب غير منصبه كمراسل جريدة — كان مستشاراً خاصاً للسفير الالماني ويده اليمنى في كل اعماله

اجتمعت مرات عديدة بفيتز وتباحثنا ملياً في المسألة البلغارية وكان دائماً يبدي وجله تجاه موقفها المتغير لانهُ لم يكن متأكداً مصيرها النهائي

ولكن في السابع من ايلول (سبتمبر) أتاني باخبار مهمة قال :

— ان موقف بلغاريا قد تغير فجأة في الليل الماضي

البارون نيوراث مستشار السفارة الالمانية كان قد ذهب الى صوفيا واتفق مع الحكومة البلغارية وامضوا شروط المعاهدة .واصبحت بلغاريا حليفتنا منذ الليل الفائت

والعامل الذي دفع بلغاريا الى اذرع الدول المركزية هو ان المانيا اتفقت مع تركيا على ان تتنازل لبلغاريا عن قطعة ارض تقع بين حدود بلغاريا ونهر المرتزا حيث يمر خط السكة الحديدية من دده اغاج نحو صوفيا . وتنازلت ايضاً عما يقع من ولاية ادرنه الى غربي نهرالمرتزا ووعدوها بضم مكدونيا اليها حالما تتمكن الجيوش البلغارية بمساعدة حلفائها من احتلالها

واني اذكر بوضوح تام فرح ويتز حينما اخبرني كل ذلك . قال : —

—لقد تم كل شيء —وقد اصبحت بلغاريا حليفتنا

وكأني بدخول بلغاريا في الحرب مع المانيا وحلفائها قد ازاح عبئاً ثقيلا عن ظهور الاتراك— وذلك لانهم تأكدوا كسر شوكة اعدائهم مهما قويت في ساحة الدردنيل وغيرها

ولما التقيت بأنور لاول مرة بعد ذلك قال

— لولا الاتراك لما انضمت بلغاريا الى الدول المركزية . نعم قد ضحينا بقسم من بلادنا العزيزة ولكن خلصنا الاستانة من خطر عظيم كان يهددها .فالآن بدلاً من ابقاء ١٠٠٠٠٠ جندي على حدود بلغاريا نقدر ان نستعمل ذلك الجيش في ساحات الحرب الاخري . ان المانيا تعبيء حملة كبيرة ضد سربيا فتجتاحها ومتى فعلت ذلك يسهل عليها ان تمدنا بالمال والرجال والذخائر الحربية

لقد كان خوفنا العظيم من اتفاق بلغارياواليونان علينافيؤدي ذلك الى دخول رومانيا فيفتتحوا الاستانة عنوة ويقضوا على تركيافي اوربا قضاء مبرماً . ولكن الآن بفضل دخول بلغاريا ليس لدينا الا عمل واحد وهو اخراج الحلفاء من الدردنيل وسنفعل ذلك في القريب العاجل انشاء الله .

نعم قد خسرنا قطعة من الارض —ولكن رأينا ان تلك الخسارة تؤدي الى ربح عظيم — الا وهو الانتصار في هذه الحرب الكبرى

***

لم يمض على دخول بلغاريا اكثر من ثلاثة اشهر حتى اعترف الحلفاء بانكسارهم

في ساحة الدردنيل فتراجعت قواتهم وقد قطعوا الامل من افتتاح المضايق لانجاد روسيا بالمال والذخائر — فبدت جرثومة الثورة تظهر فيها حتى حدث الانقلاب العظيم واصبح وجودها في جانب الحلفاء وعدمهُ سيان

اخذ الالمان بتسيير القطار من برلين الى الاستانة في السابع عشر من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ بعد ان اجتاحت الجنود الالمانية النمسوية — البلغارية أراضي سربيا فتمكنوا من مساعدة تركيا وخيل الى الالمان ان حلمهم بانشاء امبراطورية كبرى تمتد من البحر الشمالي الى خليج العجم قد تم او كاد



طلعت پاشا

من مذكرات طلعت باشا(١)

معلومات وثيقة عظيمة الشأن

لم يكن لحكومة تركيا بعد ثورة سنة ١٩٠٧ سياسة خارجية منتظمة . بل كانت تارة تخطب ودّ انكلترا وطوراً تتقرب من ممثلي المانيا . كنا نتقلب حسب أحوال السياسة التي لا تستقر على حال

بعد انتهاء حروب البلقان شعرنا ان خسارتنا للولايات التركية في أوربا نتجت عن تقلب سياستنا الخارجية (الامر الذي ترك تركيا بدون أصدقاء تعتمد عليهم وقت الشدة) ولذلك عزمنا على حل أهم مشاكلنا السياسية أولاً ثم جمع قوانا لاصلاح البلاد اقتصادياً واجتماعياً . كان محمود شوكت باشا اذ ذاك صدراً أعظم فعين لجنة برئاسة حقي باشا الصدر الاعظم الاسبق وسفير تركيا في المانيا ابان الحرب الكبرى ، ومنحها السلطة المطلقة لعقد الاتفاقات الضرورية لحل تلك المشاكل ، فابتدأ حقي باشا عمله المهم في لندن وبعد ان تم الاتفاق مع حكومة بريطانيا قصد باريس ومنها عزم ان يذهب الى برلين. ولكن عندئذ أرسلت حكومة روسيا الى الباب العالي مذكرة قوية اللهجة طلبت فيها تنفيذ بعض مواد من معاهدة برلين لا لانها تريد الاصلاح او تبغي تحصيل حق مهضوم بل لتخلق بذلك سبباً للتداخل في شؤون تركيا

فوجدنا انفسنا ازاء مذكرة روسيا — وهذه اسبابها ومراميها — في موقف حرج جداً . فارسلنا برقية الى حقي باشا طلبنا فيها اليه ان يفاوض حكومة انكلترا بشأن اتفاق نقدر بواسطته ان نحصل على مساعدتها في الولايات الشرقية حيث مصالحنا ومصالح روسيا على طرفي نقيض حتى لا نترك لروسيا مجالاً للمعارضة . فاقترح حقي باشا على حكومة انكلترا ان تعين من قبلها مندوبين ليراقبوا اعمال الاصلاح التي كنا قد عزمنا ان نبدأ بها في تلك الولايات ، فوقع هذا الاقتراح منها موقع القبول وعينت المندوبين واعلنت اسماءهم ، وبذلك بدا لنا كأن الغيوم الكثيفة المتلبدة في جونا السياسي اخذت بالتبدد والانقشاع . لكن روسيا حينما

---

(١) ترجمناها في السنة الماضية ونشرها الهلال الاغر

علمت بهـذا الاتفاق اخذت تستعمل كل ما لديهـا من النفوذ في دوائر انكلترا السياسية لتلغيه فنجحت ولم يمض وقت قصير حتى اعلمتنا حكومة انكلترا بانها لاتقدر ان تعمل به

تركيا والمانيا

في تلك الآونة كانت حكومة المانيا تخطب ودنا وتظهر عطفها على مبادئنا السياسية وتعرض علينا مساعدتها في حـل مشاكلنا المتعددة . وحينما طلبنا من مجلس السفراء في الاستانة ان يتوسط بشأن مذكرة روسيا المذكورة آنفاً اشاروا علينا جميعاً ما عدا سفير المانيا بقبول شروط روسيا . ثم ان هـذا السفير عرض علينا مساعدته بما له ولحكومته من النفوذ . فبذلك تمكنا من اتمـام مساعينا السياسية على رغم مذكرة روسيا التي وضعناما فيها من المطالب على قاعدة «الاصلاح العام»

فأدت هـذه الحادثة وكثير غيرها الى تكون حزب كبير في الوزارة العثمانية يميل الى مصادقة المانيا ويرى فيها المعين المخلص على مشاكل السياسـة ومصاعبها

وعلى اثر خروجنا من الحرب البلقانية مخذولين بعـد ان خسرنا قسماً كبيراً من ولايتنا الاوربية ؛ حدث خلل في التوازن الحربي السياسي في البلقان . فرأينا من الصواب ان نعقد محالفة مع احد قسمي اوربا الكبيرين ـ المحالفة الثلاثية او الاتفاق الودي الثلاثي ـ لكي نسترجع مركزنا الذي فقدناه في حروب البلقان . وكان ما شهدناه من مظاهر الصداقة في اعمال سفير المانيا بشأن مذكرة روسيا وما رأيناه من فتور انكلترا دافعاً لنا على مفاتحة سفير المانيا بشأن محالفة المانية تركية . فقبل هذا الاقتراح بما عهد به من الانس والبشاشة وفاوض حكومته بشأنه فكان الجواب ان حكومة المانيا لا تنظر بعين الاهتمام العظيم الى هذه المحالفة لان تركيا ضعيفة ؛ ولكن حكومة المانيا تعتقد انهُ قد يجيء وقت تصبح فيه هذه المعاهدة ضرورية . وهكذا حبطت مساعينا في البحث عن محالف كبير قوي لان دول اوربا كانت تبحث عن حلفاء اقوياء . ولـكن لشدة دهشتنا جـددت حـكومة المانيا في اوائل سنة ١٩١٤ المفاوضات بشأن عقد محالفة تركية المانية . ولما كنا لم نغير خطتنا في سياستنا الخارجية لم نر وجهاً لرفض هذا الاقتراح . وبعد المفاوضة مع سفير المانيا في الاستانة اتفقنا على الشروط وعقدنا محالفة سياسية حربية مع دولته.

وعلى أثر التصديق على هذه المعاهدة وقعت في البوسنه والهرسك الحوادث المؤلمة التي أدّت الى اشتعال نار الحرب الكبرى

لما صدقنا على تلك المعاهدة لم يكن منتظراً وقوعْ الحرب . ولكن حينما وقعت تلك الحوادث الهائلة علمنا ان المانيا لم تطلب الاتفاق معنا الا لأنها ظنت ان الساعة قد دنت ، وانها نظرت الى المستقبل بعين تخترق حجب الغيب . ومع ذلك كنا نعتقد جميعاً ان تلك المحالفة كانت مفيدة لنا للغاية

تجنب الدخول في الحرب

ولم تمض بضعة اشهر حتي رأينا بوق الحرب ينفخ في دول أوربا فيهيب ، وللحال شعرنا بحرج موقفنا ، لأنهُ بمقتضى المحالفة التي عقدناها قبل وقوع الحرب كان يجب علينا ان ننضم الى أحد الفريقين المتحاربين فكان يزورنا في كل يوم سفير المانيا والنمسا ليسألانا «أي متى تخوضون غمار الحرب معنا ، فتبرهنون بذلك عن اخلاصكم وتقومون بوعودكم ؟ »

لو شئنا لكان في امكاننا ان نجيب « ان حكومة ايطاليا أحد اعضاء المحالفة الثلاثية لم تشهر الحرب على اعدائكم والمانيا ايضاً لم تحترم امضاءها في المعاهدة التي تقضي ببقاء البلجيك على الحياد » ولكننا كنا نتحاشى جواباً مثل هذا لانهُ بمثابة رفض بات لمعاهدتنا الجديدة التي بذلنا في سبيلها كل قوانا . ثم ان رفضنا كان يظهر للملأ أجمع اننا غير أهل لان يعتمد علينا أو يوثق بأقوالنا ووعودنا . فلذلك جربنا أن نجيب سفير المانيا بطريقة سياسية جواباً لا يعني الرفض البات ولا التنفيذ العاجل لشروط الاتفاق . فكنا نقول « ان تركيا ستحافظ على وعودها بكل امانة واخلاص وستضم قوتها الى قوة حليفتها متى قضت الحاجة لاننا بذلك نكون قد انجزنا وعودنا لكم ودافعنا عن كياننا ضد روسيا التي تتحين الفرص للايقاع بنا . على انهُ ليس من الحكمة ان نضم قوتنا الى قوتكم وبلغاريا تفصل بيننا ، بل يجب ان نستطلع رأيها اولاً بشأن الحرب فاذا انضمت بلغاريا الى دول الاتفاق يقضى على تركيا قضاء مبرماً لاننا خسرنا في حروب البلقان كل المعاقل ، والحصون وخطوط الدفاع التي كنا نقدر بواسطتها ان ندرأ اخطار اعدائنا في البلقان ، ولكننا قد نتمكن من استمالة بلغاريا لما بينها وبين سربيا من الحقد والعداوة » . فكان لهذا الجواب

المحـكم نصيبه من التأثير في عقل السفير فتمكنا من أن نؤجل دخولنا في الحرب حتى نرى مايكون من أمرها في مقدماتها المختلفة

وكثرت الاشاعات في هذا الحين ومؤداها ان دول الاتفاق عرضت علينا اقتراحات خلابة واننا رفضناها رفضاً باتاً ولـكن هذه الاشاعات ليست بالحقيقة الصرفة . بل اصرح انهُ منذ ابتداء الحرب الـكبرى حتى حادثة البحر الاسود ، لم تعرض دول الاتفاق علينا اقتراحاً واحداً رسمياً ، وكل ما فعله سفراء دول الاتفاق انهم جربوا ان يقنعونا بالبقاء على الحياد وانهُ اذا حافظنا على حيادنا يساعدوننا على المحافظة على سلامة الامبراطورية العثمانيـة ، وهذا الوعد الاخير هو ما كانوا يعنوننا بهِ منذ مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ (الذي عقد بعد حرب القرم) ولذلك لم نتمكن من الاعتماد على وعودهم (يشير الى حادثة المذكرة الروسية المذكورة في اول المقالة) وخصوصاً بعد ان صادرت حكومة انكلترا المدرعتين العثمانيتين ، عثمان الاول ورشادية اللتين كانتا تبنيان في انكلترا . فقد هاج هـذا العمل الرأي العام العثماني الذي ذهب الى ان انكلترا لم تفعل ذلك الا لانها تريد ان تقوي الاسطول اليوناني في البحر المتوسط

كان النصر في اشهر الحرب الاولى حليف الجنود الالمانية ورغم انكسار المارن بقي خبيرو المانيا الحربيون على تفاؤلهم معتقدين ان النصر النهائي سيكون حليفهم . وفي هذه الاثناء كان سفراء دول الاتفاق يوجسون خيفة من سياسـة الباب العالي ، لاسيما بعد قدوم البعثة الالمانية الحربية ولم يكن ليقنعهم تغيير اسمي المدرعتين الالمانيتين غوبن وبرسلو ، فكانوا دائماً يحتجون على بقاء البحارة الالمان فيهما ، فشعرنا بقوة حجتهم وحرج موقفنا ، ولـكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى الاحتجاج ، لئلا يحرجونا فيخرجونا عن الحياد

بلغاريا ورومانيا

ولما الح علينا الالمان بالاشتراك معهم في الحرب تنفيذاً للمعاهدة المعقودة بيننا ، صممنا على استطلاع رأي الحكومة في بلغاريا اولاً . وحينما اقترحوا علينا أن نفعل ذلك فلم يسعنا سوى القبول . فاجتمعت الوزارة العثمانية اجتماعاً خاصاً وبعد مناقشات طويلة قرّ الرأي على ارسال بعثة الى بلغاريا للوقوف على رأي حكومتها بشأن الحرب . وعهدت الوزارة اليّ في الامر فذهبت وبصحبتي خليل بك رئيس مجلس المبعوثان

آنئذ ، فقابلنا المسيو رادوسلافوف رئيس وزراء بلغاريا ومسيو جناديف وزير خارجيتها وكان لنا معرفة شخصية بهما . وبعد مفاوضات طويلة فهمنا ان موقفهم عائد الى الموقف الذي تتخذه حكومة رومانيا . وكانت بلغاريا على تمام الاستعداد لخوض غمار الحرب ضد صربيا ولو عضدت هذه دولة اليونان ولكنها كانت تخاف رومانيا ولا سيما وجيوش روسيا الجرارة على مقربة منها . ولذلك كان يصعب اقناع بلغاريا بالنزول الى ذلك المعترك الهائل قبل ان تتثبت من ان جارتها رومانيا لا تنوي لها اذية . فتركنا صوفيا ويممنا بخارست

كان اذ ذاك فون كلمان سفير المانيا في بخارست ، وكونت شرنين سفير النمسا ومسيو رادف سفير بلغاريا ومسيو براتيانو رئيس وزراء رومانيا ، فبدأنا حسب الخطة التي رسمناها معاً بزيارة الملك ورئيس الوزراء ووزير الخارجية ، كل منا على حدة . وفي المساء كنا نجتمع في احدى السفارات لنبحث في المعلومات التي حصلنا عليها وانرسم خطتنا للنهار التالي . وبعد مباحثات طويلة علمنا ان الحكومة الرومانية كانت تؤثر البقاء على الحياد بل ان مسيو براتيانو وعدنا وعداً شفهياً بان الحكومة تحافظ على الحياد مهما تقلبت سياسة البلقان. ولكن رادوسلافوف طلب وعداً كتابياً . فطلبنا من مسيو براتيانو هذا العهد الكتابي فقال :

« ان رومانيا وعدت العالم بأنها ستحافظ على حيادها في هذه الحرب ، ومملكة سربيا إحدى الممالك المحاربة الآن ، فاذا اعطينا بلغاريا وعداً كتابياً يشجعها على مهاجمة سربيا نكون قد اسأنا استعمال حيادنا وذلك مما نأباه ولكني أعد شفهياً باننا نبقى على الحياد ولو وقعت الحرب بين بلغاريا وسربيا »

اما حكومة بلغاريا فلم تشأ ان تخوض غمار الحرب مكتفية بوعد رومانيا الشفهي . فعدنا الى الاستانة بعد ان علمنا ان بعثتنا قد فشلت ، ولا اعلم هل بلغ سفراء الحلفاء في صوفيا وبخارست والاستانة خبر المفاوضات . وعلى ذلك بقيت حالتنا بعد عودتنا كما كانت . . .

اعلان الحرب

ما مرَّ بنا يوم الا ازداد موقفنا تحرجاً وخصوصاً بعد مجيء البعثة الالمانية البحرية وازدياد عدد الضباط والبحارة الالمان في شوارع الاستانة وانديتها

حينئذ وقعت حادثة البحر الاسود. وذلك ان الاميرال سوشون ومعهُ اقوى بوارج الاسطول غادر مقر الاسطول ووجهته البحر الاسود فهاجم الاسطول الروسي وأطلق القنابل على بعض المرافىء التجارية. ولم يعلم الباب العالي بهذه الحادثة الا بعد وقوعها — خلافاً لما كان يعتقده العامة. وقد كنت اكذب هذه الاشاعة اثناء الحرب اما الآن وقد وضعت الحرب اوزارها فأعلن للملأ اجمع اني علمت بوقوع هذه الحادثة مثل ما علم كل احد غيري في الحكومة العثمانية — اي بعد وقوعها ، وأن الوزارة لم تصادق على هذا العمل ولا اعترف بهِ احد من اعضائها ، بل ان حدوثهُ ساء كل عضو فيها حتى استقال محمود چوروك صولو باشا وسليمان افندي البستاني واوسقان افندي ، وصرح جاويد بك بأنهُ يستقيل اذا لم تسوّ المسألة تسوية مرضية. وسعيد حليم باشا الذي كان صدراً أعظم قبل ان يبقى في منصبه الى نهاية اجتماع واحد لعل الحكومة تتمكن من ان تصل فيهِ الى قرار نهائي

ولكن موقفنا ازداد حرجاً وخطورة. فوقفنا على مفترق الطرق ، اما ان ننضم الى الالمانيا او نعتذر الى روسيا بطريقة مقبولة لديها فتنتهي المسألة بارجاع السيف الى غمده وتوطيد اركان السلام ولو الى حين. فاجتمعنا اجتماعاً خصوصياً في بيت سعيد حليم باشا وبعد مناقشات دقيقة فوضنا الى الصدر الاعظم ووزير الخارجية بان يجتمعا بسفراء دول الاتفاق وخصوصاً بسفير روسيا ليبذلا وسعهما في انهاء المسألة

ولكن بعد وقوع الحادثة رفع سفير روسيا احتجاجاً قوي اللهجة وتلته احتجاجات سفراء دول الاتفاق. على ان احتجاجي انكلترا وفرنسا أظهرا ميلاً الى تصفية المسألة بطريقة ودية ولذلك اقترحا نزع السلاح من المدرعتين غوبن وبرسلو وتسريح البحارة الالمان الذين كانوا يعملون فيهما ، وان تضع حكومة تركيا حداً لعلاقاتها السرية مع المانيا ، وتحافظ على الحياد التام. فلم نتمكن من التسليم بهذه الشروط لان ذلك بمثابة نبذ معاهدتنا مع المانيا

فاجتمعنا ثانية ودرسنا الحالة درساً دقيقاً. ابدى كلنا الاسف لوقوع الحادثة ولكن دول الاتفاق كانت قد علمت اننا ميالون الى مساعدة المانيا ولم يكن لدينا منها ما يعتمد عليهِ من الوعود. فاذا حافظنا على حيادنا سواء أفاز الحلفاء ام خسروا كنا من الخاسرين على كل حال لان المانيا تكون قد حقدت علينا لعدم قيامنا بعهودنا ومساعدتنا لها ، دول الاتفاق — اذا انتصرت — تريد الانتقام منا لاننا كنا ميالين

لمساعدة المانيا . ولكن اذا ضممنا قوانا الى المانيا نكون من الرابحين اذا كان النصر حليفاً لنا . اما انا فكوطنيّ مخلص لم اشأ ان اطوّح بدولتي في مهاوي الهلكة . ولذلك تملك مني الاعتقاد انهُ خيرٌ لنا ان ندخل الحرب الى جانب المانيا ولكن كنت اودّ ان اؤجل ذلك جهدي

وبينما نحن نتردد في ماذا يكون موقفنا النهائي ، ازاء هذه الحادثة بلغنا ان روسيا تحشد جيوشها في جهة القوقاس فلم نتردد بعد ذلك فاشرت على رفاقي في الوزارة ان نعلن الحرب على دول الاتفاق الودّي ،فنال هذا الاقتراح اكثرية الاصوات وعند ما فضّ الاجتماع رفضنا شروط السفراء واعلنا انضمامنا الى المانيا

تركيا والارمن

لقد اتخذ بعض الكتاب مسألة نفي الارمن ، وفي بعض الجهات اليونان والسوريين ، سبباً للطعن على الحكومة العثمانية .وقبل ان اذكر شيئاً عن موقف الحكومة نحو الارمن أريد ان اصرّح بان الاخبار عن هذا النفي مبالغٌ فيها ، فالارمن واليونان ارادوا ان يستميلوا الشعوب الاوربية والاميركية فصوروا الحالة بصور جاءت غير منطبقة على حقيقة الواقع ، ولا أريد بقولي هذا ان انفي صحة هذه الحوادث ولكن اريد ان انفي ما فيها من مبالغة واغراق

اني اعترف انا نفينا كثيرين من الارمن من الولايات الشرقية ولكن لم يكن ذلك حسب خطة رسمناها قبلاً . والتبعة في هذه الاعمال تقع على الارمن لانهم بذلوا ما في وسعهم لمساعدة الجيش الروسي فكانت عصب الاشقياء منهم تتبع آثار الجيش التركي وتعيث في مؤخرهِ فساداً حتى يتمكن منهُ اعداؤه الروسيون . وقد وجدنا بعد البحث ان كنائسهم لم تكن سوى مستودعات الذخائر والمؤن والاسلحة. وبهذه الطريقة اهلكوا ٣٠٠٠٠٠ مسلم وقطعوا أسباب المواصلات بين الجيش التركي في مقدمة الحرب ومركز القيادة في القوقاس

وكان يصلنا يومياً تفاصيل عديدة من الولاة وقواد الجيش في القوقاس عن أعمال كهذه فلم نتمكن من ان نتعامى عنها ونحن في حرب لها الشأن الاكبر في المحافظة على كياننا ، حتى انهُ لو حدثت هذه الاعمال ابان السلم لاضطررنا ان نجازي الخونة الثائرين .ولم يكن نفيهم الا من قبيل منع النكبة قبل وقوعها ـ الا والنكبة انكسار الجيش التركي وانهيار العرش العثماني

اني اعترف ان النفي لم يجر في كل الاماكن حسب القوانين المرعية والمعترف بها ، وانهُ حدثت في بعض القرى اعمال غير قانونية ، وما ذلك الا نتيجة البغض الذي اوغر قلوب الفريقين ـ الارمن والمسلمين ـ . نعم كان هناك عدد من اصحاب المناصب في الحكومة أساءوا استعمال سلطتهم ولحق الضررُ بعدد كبيرٍ من الابرياء ، اعترف بذلك وأقر ايضاً بان واجبات الحكومة تقضي بتعقب المجرمين ومنع وقوع الفظائع ، وقد فعلنا ذلك في بعض الاماكن. ولكني اقر ايضاً بانهُ كان يجب على الحكومة ان تدقق في البحث عن المجرمين وتجازيهم بشدة وعنف . ولكنها لم تقدر ان تفعل ذلك. ومع اننا عاقبنا عدداً من المجرمين فقد بقي العدد الاكبر يسرح ويمرح مطمئناً اميناً. لان القسم الاكبر من الذين ارتكبوا هذه الفظائع كانوا مدفوعين بعامل الحقد على الارمن كما انهم كانوا يعتقدون انهُ خير للامة ومستقبلها ان يهلكوا. فاذا عاقبنا هؤلاء يهيج الرأي العام علينا وتنتشر الفوضى في بر الاناضول وتنشطر الامة الى شطرين في وقت نحن فيهِ بامس الحاجة الى الاتحاد

اما من جهة نفي اليونان الموجودين على شواطىء اسيا الصغرى الغربية فلم ننفِ الى داخلية الاناضول سوى الذين ثبت لنا عنهم انهم كانوا يمدون غواصات الاعداء بالمؤن والذخائر . وأما في سوريا فأعلنا الحكم العرفي وعاقبنا الذين كانوا يحرضون الشعب على الثورة

لقد حدثت أمثال هذه الحوادث في كل مملكة في العالم اثناء الحرب ولكن لسوء الحظ لم يرها العالم ولم يسمع بذكرها الا في بلادنا لان اعين الجميع كانت متجهة الينا

فهرس